

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الفضل في القرآن الكريم دراسة موضوعية

إعداد

عوني عدنان محمد كميل

إشراف

د. محسن سميح الخالدي

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس.

2017

الفضل في القرآن الكريم دراسة موضوعية

إعداد

عوني عدنان محمد كميل

نُوقِشت هذه الأطروحة بتاريخ: 16 / 2 / 2016م، وأُجيزت .

أعضاء لجنة المناقشة:

التوقيع

..... د. محسن سميج الخالدي / مشرفاً ورئيساً

..... د. محمد يوسف الديك / ممتحناً خارجياً

..... د. منتصر الأسمر / ممتحناً داخلياً

الإهداء

- إلى روح شَيْخِي الشَّهِيد: " ظافر محمد كميل".
- إلى أبي وأمي وإخوتي الغاليين.
- إلى الزوجة الفاضلة وأهلها الكرام.
- إلى الابن الغالي " عُمَر".
- إلى أصدقاء الدراسة الأعزاء: "عمر أبو ليل، ومحمود سلوم، ورامي الأغبر".

الشكر والتقدير

أتقدم بجزيل شكري وتقديري إلى أستاذي الفاضل الدكتور "محسن سميح الخالدي" الذي كان لي خير عون ومرشد؛ لإتمام هذه الدراسة، فلم يضمن علي بعلم ولا جهد، وكان لملاحظاته الدقيقة الفضل في إثراء هذه الرسالة.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة، الدكتور الفاضل محمد يوسف الديك، والدكتور الفاضل منتصر الأسمر، اللذين تفضلاً بالموافقة على مناقشة هذه الأطروحة.

وأشكر خالي الحبيب، الأستاذ: "معين رفيق"، الذي دقق هذه الرسالة لغوياً، وكان لي خير معين.

سائلاً المولى - عز وجل - أن يحفظهم جميعاً
ويجزئهم الجزاء الأوفى.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الفضل في القرآن الكريم دراسة موضوعية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يُقدّم من قبل لنيل أية درجة علمية أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis -unless otherwise referenced- is the researcher's own work, and has not been submitted from elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

اسم الطالب:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

ت	الإهداء
ث	الشكر والتقدير
ج	الإقـــــرار
ح	فهرس المحتويات
ذ	الملخص
1	مقدمة
8	الفصل الأول: معنى الفضل
9	المبحث الأول : تعريف الفضل في اللغة والاصطلاح
9	المطلب الأول: تعريف الفضل في اللغة
10	المطلب الثاني: تعريف الفضل في الاصطلاح
13	المبحث الثاني: عرض الآيات والملحوظات واللفظات المتعلقة بالفضل
13	المطلب الأول: عرض آيات الفضل حسب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
19	المطلب الثاني : الملحوظات حول معاني الفضل في القرآن الكريم
25	المبحث الثالث: معاني الفضل في القرآن الكريم
30	المبحث الرابع: الألفاظ ذات الصلة بمعنى الفضل
34	الفصل الثاني: التفاضل بين الأنبياء والرسل
35	المبحث الأول: التفاضل بين الأنبياء أنفسهم
35	المطلب الأول: أدلة التفاضل بين الأنبياء
38	المطلب الثاني: التفاضل بين الأنبياء والرسل
41	المطلب الثالث: التفاضل بين الرسل أنفسهم
43	المطلب الرابع: أوجه التفاضل بين الأنبياء
	المطلب الخامس: الجمع بين الآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض في

45	التفضيل بين الأنبياء
50	المبحث الثاني: فضل الله على أولي العزم من الرسل
50	المطلب الأول: فضل الله على النبي نوح عليه السلام
51	المطلب الثاني: فضل الله على إبراهيم عليه السلام
55	المطلب الثالث: فضل الله على موسى عليه السلام
56	المطلب الرابع: فضل الله على عيسى عليه السلام
58	المطلب الخامس: فضل الله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم
68	الفصل الثالث: فضل الله على المؤمنين وعلى بني إسرائيل وعلى الناس كافة
69	المبحث الأول: فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين
69	المطلب الأول: فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في الدنيا
84	المطلب الثاني: فضل الله على المؤمنين في الآخرة
89	المبحث الثاني: فضل الله على بني إسرائيل
90	المطلب الأول: تفضيلهم على العالمين
92	المطلب الثاني: مقارنة بين "تفضيل" بني إسرائيل، و"خيرية" أمة محمد صلى الله عليه وسلم
94	المطلب الثالث : إنجاؤهم من عدوهم
95	المطلب الرابع : العفو عنهم بعد عبادتهم العجل
96	المطلب الخامس : إيتاء موسى عليه السلام التوراة لهدايتهم
97	المطلب السادس: تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم
98	المطلب السابع : إغاثتهم بالماء بعد العطش الشديد
100	المطلب الثامن: التمكين لهم في الأرض المباركة
102	المبحث الثالث : فضل الله على الناس جميعاً
102	المطلب الأول: فضل الله على الناس بنعمة البحر وما فيه من خيرات
104	المطلب الثاني: فضل الله على الناس بإرسال الرياح
106	المطلب الثالث: فضل الله على الناس بنعمتي الليل والنهار

108	المطلب الرابع: فضل الله على الناس بسنة التدافع
109	المطلب الخامس: فضل الله بأن جعل الناس والمخلوقات متفاوتين
	الفصل الرابع: سبل تحصيل فضل الله، وموقف كل من المؤمنين، واليهود، والمنافقين
111	من فضل الله
112	المبحث الأول: سبل تحصيل فضل الله
112	المطلب الأول: الإيمان بالله والاعتصام به
113	المطلب الثاني: الاستغفار والتوبة
115	المطلب الثالث: العمل الصالح
117	المطلب الرابع: طاعة الله-سبحانه وتعالى-
118	المطلب الخامس: تلاوة القرآن وإقامة الصلاة والزكاة والإخلاص والرجاء
120	المبحث الثاني: موقف كل من المؤمنين واليهود والمنافقين من فضل الله
120	المطلب الأول: فرح المؤمنين بفضل الله
122	المطلب الثاني: حسد اليهود لفضل الله على المؤمنين بالرسالة
128	المطلب الثالث: بخل المنافقين، ونقمتهم على الإسلام ولمزهم للمتصدقين من المؤمنين
131	الخاتمة
134	المصادر والمراجع
b	Abstract

الفضل في القرآن الكريم دراسة موضوعية

إعداد

عوني عدنان محمد كميل

إشراف

د. محسن سميح الخالدي

الملخص

تأتي هذه الدراسة خطوة على طريق التفسير الموضوعي، وقد تناولت عنوان (الفضل في القرآن الكريم، دراسة موضوعية)، حيث تم جمع الآيات المتعلقة بالفضل، وترتيبها، وتبويبها، كما تم استخلاص اللطائف والفوائد والأحكام منها، متبعاً في ذلك المنهج الاستقرائي والتحليلي، وجاءت العناوين الرئيسية والفرعية مستقاة من خلال الآيات، وقد تم تقسيم الدراسة إلى أربعة فصول:

تضمن الفصل الأول الحديث عن معنى الفضل في اللغة وفي الاصطلاح، والسياقات التي ورد فيها في القرآن الكريم، مع تتبع جميع الصيغ والاشتقاقات الواردة لمصطلح الفضل، بالإضافة إلى الألفاظ ذات الصلة بمعناه.

واحتوى الفصل الثاني على موضوع التفاضل ما بين الأنبياء والرسل، وما بين الرسل أنفسهم، مع إيراد أدلة التفاضل بينهم، ومظاهر هذا التفاضل في الدنيا والآخرة.

وتضمن الفصل الثالث الحديث عن فضل الله على المؤمنين في الدنيا والآخرة، وفضل الله على الناس كافة، وفضل الله على بني إسرائيل، وفرق بين خيرية أمة محمد-صلى الله عليه وسلم- وتفضيل الله-عز وجل- لبني إسرائيل على غيرهم من الأمم.

وبحث الفصل الرابع في سبل تحصيل الإنسان لفضل الله-عز وجل- ومن هذه السبل، الإيمان بالله، والاعتصام به، وطاعته، والعمل الصالح، والصلاة والزكاة والإنفاق في سبيل الله، وميز كذلك مواقف كل من المؤمنين، واليهود، والمنافقين من فضل الله.

واختتمت الدراسة بأهم النتائج والتوصيات .

الباحث

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه، واقتفى أثره، ونصر سنته، إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أعظم العلوم مكانة، وأرفعها منزلة، علوم القرآن الكريم، فهو كلام الله تعالى الذي وسع علمه ملكوت السماوات والأرض، فهذا الكتاب الكريم؛ لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي علومه، وهو أساس معطاء بلا توقف، ومتجدد بلا تأخر، وهو الذي تعجز الألسنة عن وصفه، يكفينا تعريفاً له بالقول: "كلام رب العالمين".

وقد اختص الله عز وجل هذه الأمة الكريمة بهذا الكتاب، فدرس علماءها آياته، وتأملوا مكنوناته، وانكبوا عليه بكل ما آتاهم الله عز وجل من قدرات لاستخراج كنوزه وعظاته، وسخروا كل العلوم لخدمته، حتى صارت أمة الإسلام يضرب بها المثل، في احترام كلام ربها، فجعلوا لهذا المنهل العذب علوماً منفردة، تدرس على مر العصور، وتتنامى جيلاً بعد جيل .

وقد هيأ الله عز وجل لهذا العلم رجاله، فتحملوا مكابدة الليالي، وأعباء السفر، وعظم الأمانة التي وكلوا بها، فضحوا بحياتهم، ووهبوا أعمارهم، وهجروا لذات فراشهم، كل هذا ليعلموا كتاب ربهم، ويذبوا عنه ما استطاعوا، حتى وصل إلينا نقياً صافياً، لا عوج فيه ولا أمتاً، عذباً كما نزل من السماء، فجزاهم الله عنا وعن كتاب ربهم كل الخير، فكان من عظيم صنيعهم أن أجادوا في تفسير القرآن تفسيراً موضوعياً.

ومن هذه الموضوعات التي ينبغي تتبعها والبحث عنها في القرآن الكريم، موضوع الفضل، فضل الله على الأنبياء، وعلى المؤمنين، وعلى الناس جميعاً، وسبل تحصيل هذا الفضل.

وتتركز هذه الدراسة -بعون الله- على مصطلح (الفضل)، الذي ورد في القرآن موزعاً، حيث تم جمع الآيات كلها، والبحث في معظمها.

مشكلة الدراسة

تكمّن مشكلة الدراسة، في الإجابة عن الأسئلة الآتية :

- 1- ما حقيقة الفضل في القرآن الكريم؟
- 2- ما أوجه التفاضل بين الأنبياء في القرآن الكريم؟
- 3- ما مظاهر فضل الله على المؤمنين في الدنيا والآخرة؟
- 4- ما مظاهر فضل الله على الناس كافة؟
- 5- ما مظاهر فضل الله على بني إسرائيل؟
- 6- ما الفرق بين تفضيل بني إسرائيل، وخيرية أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟
- 7- ما هي سبل تحصيل فضل الله؟
- 8- ما موقف كل من المؤمنين واليهود والمنافقين من فضل الله؟

أهمية الدراسة

تتبع أهمية الدراسة مما يلي:

1. أنها تتبّع معاني الفضل في المواقع المختلفة.
2. أنها بيّنت مدى ترابط معاني القرآن، بالرغم من تفرّق مواضع ذكر الفضل على الآيات والسور المختلفة، وعلى السياقات والحوادث المتعددة.
3. أنها كشفت حقيقة التفاضل بين الأنبياء، وتفضيل الله لأولي العزم، وتفضيل محمد-صلى الله عليه وسلم- على أولي العزم.
4. أنها يسّرت للقارئ معرفة مظاهر فضل الله تعالى على المؤمنين والناس كافة وبني إسرائيل.
5. أنها تضمنت السبل التي من خلالها يتحصّل فضل الله.
6. أنها تكشف عن مدى حسد اليهود والمنافقين لفضل الله على المؤمنين وتبين تربصهم بالإسلام.

أسباب اختيار الموضوع

- 1- عدم وجود دراسة في موضوع الفضل في القرآن الكريم.
- 2- تحرير معاني الفضل المختلفة، ضمن السياقات المتعددة التي يرد ذكره فيها.
- 3- حاجة المؤمن لمعرفة السبل التي من خلالها يتحصل فضل الله تعالى .
- 4- المساحة الكبيرة التي احتلها الموضوع في القرآن الكريم، حيث بلغ عدد الآيات إلى أكثر من (96) آية ورد فيه لفظ الفضل ومشتقاته.

أهداف الدراسة

تتلخص أهداف هذه الدراسة بالآتي:

1. بيان دقة التعبير القرآني في استخدام المعاني، التي لا يصلح أن يستبدل بها غيرها.
2. توضيح مفهوم الفضل في القرآن الكريم وحقيقته.
3. بيان حقيقة التفاضل بين الأنبياء، وتفضيل أولي العزم، وبيان فضل الله تعالى على المؤمنين والناس كافة وبني إسرائيل.
4. تحديد السبل الموصلة لفضل الله .
5. بيان موقف المؤمنين واليهود والمنافقين من فضل الله.
6. الخروج بلطائف وعبر وأحكام من هذه الدراسة.

الدراسات السابقة

أولاً: النعمة بين الدوام والزوال، للطالب رائد محمد زيادة، إشراف: د. عبد السلام اللوح، 2008، وهي أطروحة في الجامعة الإسلامية بغزة، تحدّث فيها عن أحد معاني النعمة وهو الفضل.

ثانياً: سنة الله في تقدير الأرزاق، للطالبة أسماء حمودة، إشراف: د. محسن الخالدي، 2010، وهي أطروحة في جامعة النجاح الوطنية، حيث أشارت الباحثة إلى أن الفضل من معاني الرزق.

ثالثاً: فضائل القرآن الكريم، للدكتور عبد السلام بن صالح الجار الله، وهو كتاب مطبوع، تطرّق فيه المؤلف لمعنى الفضل اللغوي والاصطلاحي.

رابعاً: مباحث في المفاضلة في العقيدة، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الشظيفي، حيث تطرّق للحديث عن معنى الفضل، والتفاضل بين الأنبياء والرسل.

وما ما يميّز هذه الدراسة هو أنها اختصت بموضوع الفضل، الذي لم يجر تناوله كاملاً، في أية دراسة سابقة.

منهج الدراسة

- اتبعت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي، وذلك من خلال النظر في كتب التفسير والدراسات القرآنية، متبعا منهجية التفسير الموضوعي، وفق الخطوات الاتية:
1. استقراء الآيات، وتوثيقها.
 2. تقسيم الآيات إلى مجموعات؛ بحيث أضع في كل مجموعة آيات ذات موضوع واحد أو متقارب.
 3. ترقيم الآيات وفق رسم المصحف العثماني.
 4. تخريج كل حديث أو أثر ورد في ثنايا البحث.
 5. الاستعانة بكتب التفسير القديمة والحديثة، وعزو كل قول إلى قائله حتى لو كانت كلمة.
 6. بيان الغامض من المفردات والمعاني والأقوال، بالرجوع إلى كتب المعاجم.
 7. الالتزام التام بالتوثيق وفق المنهجية العلمية الحديثة.
 8. وضع علامات الترقيم والتشكيل والتصنيف كما يقتضي البحث العلمي .

خطة الدراسة

تتكون خطة هذه الدراسة من: مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، وهي على النحو الآتي:

الفصل الأول: معنى الفضل

المبحث الأول: تعريف الفضل في اللغة والاصطلاح

المطلب الأول: تعريف الفضل في اللغة

المطلب الثاني: تعريف الفضل في الاصطلاح

المبحث الثاني: عرض الآيات، والملحوظات واللفظات المتعلقة بالفضل

المطلب الأول: عرض الآيات المتعلقة بالفضل

المطلب الثاني: الملحوظات واللفظات حول معاني الفضل في القرآن الكريم

المبحث الثالث: معاني الفضل في القرآن الكريم

المبحث الرابع: الألفاظ ذات الصلة بمعنى الفضل

الفصل الثاني: التفاضل بين الأنبياء والرسل

المبحث الأول: التفاضل بين الأنبياء أنفسهم

المطلب الأول: أدلة التفاضل بين الأنبياء

المطلب الثاني: التفاضل بين الأنبياء والرسل

المطلب الثالث: التفاضل بين الرسل أنفسهم

المطلب الرابع: أوجه التفاضل بين الأنبياء

المطلب الخامس: مسلك العلماء في الجمع بين الآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض في

التفضيل بين الأنبياء

المبحث الثاني: فضل الله على أولي العزم من الرسل

المطلب الأول: فضل الله على نوح عليه السلام

المطلب الثاني: فضل الله على إبراهيم عليه السلام

المطلب الثالث: فضل الله على موسى عليه السلام

المطلب الرابع: فضل الله على عيسى عليه السلام
المطلب الخامس: فضل الله على محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الثالث: فضل الله على المؤمنين وعلى بني إسرائيل وعلى الناس كافة

المبحث الأول: فضل الله على المؤمنين

المطلب الأول: فضل الله على المؤمنين في الدنيا

المطلب الثاني: فضل الله على المؤمنين في الآخرة

المبحث الثاني: فضل الله على بني إسرائيل

المطلب الأول: تفضيل بني إسرائيل على العالمين

المطلب الثاني: مقارنة بين "تفضيل" بني إسرائيل، و "خيرية" أمّة محمد صلى الله عليه وسلم

المطلب الثالث: إنجاء بني إسرائيل من عدوهم

المطلب الرابع: العفو عن بني إسرائيل بعد عبادتهم العجل

المطلب الخامس: إيتاء موسى التوراة لهدايته بني إسرائيل

المطلب السادس: تظليل بني إسرائيل بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم

المطلب السابع: إغاثة بني إسرائيل بالماء بعد العطش

المطلب الثامن: التمكين لبني إسرائيل في الأرض

المبحث الثالث: فضل الله على الناس جميعاً

المطلب الأول: فضل الله على الناس بنعمة البحر

المطلب الثاني: فضل الله على الناس بإرسال الرياح

المطلب الثالث: فضل الله على الناس بنعمتي الليل والنهار

المطلب الرابع: فضل الله على الناس بسنة التدافع

المطلب الخامس: فضل الله على الناس بالتفاوت بين البشر والمخلوقات

الفصل الرابع: سبل تحصيل فضل الله، وموقف كل من المؤمنين واليهود والمنافقين من فضل الله

المبحث الأول: سبل تحصيل فضل الله

المطلب الأول: الإيمان بالله والاعتصام به

المطلب الثاني: الاستغفار والتوبة

المطلب الثالث: العمل الصالح

المطلب الرابع: طاعة الله-سبحانه وتعالى-

المطلب الخامس: تلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

المبحث الثاني: موقف كل من المؤمنين واليهود والمنافقين من فضل الله

المطلب الأول: فرح المؤمنين بفضل الله

المطلب الثاني: حسد اليهود للمؤمنين على ما آتاهم الله من الرسالة والإيمان

المطلب الثالث: بخل المنافقين، ونقمتهم على ما تفضل الله تعالى على المسلمين، ولمزهم

للمتصدقين من المؤمنين

الخاتمة وفيها أهم التوصيات والنتائج

الفصل الأول

معنى الفضل

المبحث الأول: تعريف الفضل في اللغة والاصطلاح

المبحث الثاني: عرض الآيات، والملاحظات والفتاات المتعلقة بالفضل

المبحث الثالث: معاني الفضل في القرآن الكريم

المبحث الرابع: الألفاظ ذات الصلة بمعنى الفضل

المبحث الأول : تعريف الفضل في اللغة والاصطلاح

المطلب الأول: تعريف الفضل لغة

يرد الفضل في اللغة العربية على معان عديدة، تكاد تتدرج جميعها في أصل واحد، وهو الزيادة التي هي ضد النقص، جاء في لسان العرب: "الفضل والفضيلة معروف ضد النقص والنقيصة والجمع فضول.. ورجل فضال ومفضل: كثير الفضل. والفضيلة: الدرجة الرفيعة في الفضل"¹، و"الفاء والضاد واللام أصل صحيح يدل على زيادة في شيء. من ذلك الفضل: الزيادة والخير"²، ويقول الراغب الأصفهاني "الفضل: الزيادة عن الاقتصاد"³، وقال أبو هلال العسكري: "والفضل الزيادة، يقال: فضل الشيء في نفسه زاد، وفضله غيره زاد عليه، وفضله بالتشديد إذا أخبر بزيادته على غيره، ولما يوصف الله تعالى بأنه فاضل؛ لأنه لا يوصف بالزيادة والنقصان"⁴.

والمفاضلة تأتي بمعنى الغلبة في الفضل "وفاضلت فلاناً ففاضلته، إذا ذكرتما محاسنكما فكنت أكثر محاسن منه".⁵ وجاء في اللسان: "والتفاضل بين القوم: أن يكون بعضهم أفضل من بعض.. ورجل مفضول: قد فضله غيره.. وفي التنزيل العزيز ﴿يُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ عَلَيْكُمْ﴾"⁶ معناه يريد أن يكون له الفضل عليكم في القدر والمنزلة"⁷.

¹ ابن منظور (ت: 711هـ)، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (ط1/1990م)، 524/11

² ابن فارس (ت: 395 هـ)، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، (2002)، 405/4

³ الراغب، (ت: 505 هـ) الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداوي، دار العلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، 639/1

⁴ العسكري (ت: 395هـ) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم للملايين، مصر، 195/1

⁵ ابن دريد (ت: 321 هـ)، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، (ط1/1987)، 907/2

⁶ المؤمنون: 24

⁷ ابن منظور، لسان العرب 524/11

ويرد الفضل أيضاً بمعنى الإحسان، في بعض تصريفاته، فذكر الرازي في مختار الصحاح " والإِفْضَالَ الإِحْسَانَ ورجل مِفْضَالٌ وامرأة مِفْضَالَةٌ على قومها إذا كانت ذات فضل سمحة، وأَفْضَلَ عليه وتَفَضَّلَ بمعنى، والمُتَفَضِّلُ الذي يدَّعي الفضل على أقرانه"¹.

ومن معاني الفضل، البقية من الشيء، وما زاد منه "والفضل والفضلة البقية من الشيء، وأفضل فلان من الطعام وغيره إذا ترك منه شيئاً، والفضيلة والفضالة ما فضل من الشيء، والفضول وفضلات الماء بقاءه، والعرب تقول لبقية الماء في المزايدة فضلة، ولبقية الشراب في الإناء فضلة"².

يتضح لنا مما سبق أن معاني الفضل تعود إلى أصل واحد، وهو الزيادة التي هي ضد النقص، ويتفرع منه معانٍ جزئية؛ كالتفاضل والغلبة في الفضل، والإحسان إلى الآخرين، والبقية من الشيء؛ فالغلبة في الفضل تعني زيادة أحدهم في المحاسن في مقابل الآخرين، ويحمل الإحسان معنى الزيادة في عمل الخير والسماحة، والفضل بمعنى البقية من الشيء، تعني ما زاد منه.

المطلب الثاني: تعريف الفضل في الاصطلاح

يرتبط معنى الفضل في الاصطلاح ارتباطاً وثيقاً بمعناه اللغوي، الذي يدور حول دلالات الزيادة التي ضدها النقصان؛ ومن ذلك الزيادة في الإحسان ومكارم الأخلاق، جاء في كتاب التعريفات للجرجاني: "الفضل ابتداء إحسان بلا علة"³، وهو المعنى ذاته الذي ذكره أبو هلال العسكري في كتابه الفروق اللغوية: " والفضل لَّا يكون واجباً على أحد وإِنَّمَا هُوَ مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ من غير سبب يُوجِبُهُ"⁴، وقال القشيري في تفسيره: " الفضل: الإحسان الذي ليس بواجب على فاعله"⁵.

¹ الرازي (ت: 675 هـ)، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (1415 - 1995)، 517/1.

² انظر: ابن منظور، لسان العرب، 524/11.

³ الجرجاني (ت: 816 هـ)، علي بن محمد بن علي، التعريفات تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط1/1407) 215/1.

⁴ العسكري، الفروق اللغوية، 194/1.

⁵ القشيري (ت: 465 هـ) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، ط3 (102/2).

وجاء في تفسير القرطبي: "والفضل: الزيادة على ما وجب"1، وفضلُ الله: "كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم؛ فإنه من عنده ابتداء، وتفضلاً منه عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه"2، وذكر الراغب الأصفهاني أن الفضل يكون في المحمود كما يكون في المذموم فقال عن الفضل إنه ضربان: محمود: كفضل العلم والحلم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه. والفضلُ في المحمود أكثر استعمالاً، والفضلُ إذا استعمل لزيادة أحد الشيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب :

فضل من حيث الجنس ، كفضل جنس الحيوان على جنس النبات، ومن حيث النوع، كفضل الإنسان على غيره من الحيوان، وفضل من حيث الذات، كفضل رجل على آخر، فالأولان جوهریان لا سبيل للناقص فيهما أن يزيل نقصه وأن يستفيد الفضل، كالفرس والحصان لا يمكنهما أن يكتسبا الفضيلة التي خصَّ بها الإنسان، والفضل الثالث قد يكون عرضياً فيوجد السبيل على اكتسابه، كالرزق وما يكتسب، ومنه ما خصَّ به الرجل من الفضيلة الذاتية له، والفضل الذي أعطيه من المكنة والمال والجاه والقوة، وكلّ عطية لا تلزم من يعطي يقال لها: فضلٌ3.

وورد في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: أن "الفضل: الزيادة، واستعماله في الخير"4، يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير: "الفضل: الزيادة من الخير والنفع"5.

ويتضح أن أبو حيان الأندلسي وابن عاشور يرجحان أن الفضل يكون في الخير، على عكس ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني أن الفضل يكون في المحمود والمذموم.

وسمي ربا الفضل بهذا الاسم في الفقه الإسلامي؛ لأن فيه زيادة فيعرف "ربا الفضل الذي هو بيع: بأنه زيادة عين مال في عقد بيع على المعيار الشرعي (وهو الكيل أو الوزن) عند

¹ القرطبي(671هـ) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام

القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة(2/1964) 493/1

² الطبري (ت310هـ) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: مكتب التحقيق بدار هجر دار هجر، ط1، 387/2

³ انظر: الراغب، المفردات في غريب القرآن (1/ 639)

⁴ أبو حيان الأندلسي(ت745)، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت 1420، (302/1)

⁵ ابن عاشور(ت1393 هـ)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت،(ط1/2000) 236/19

اتحاد الجنس"¹، وفي المصطلح النحوي سمي اسم التفضيل بهذا الاسم؛ لأنه اشتق من فعل لموصوف بزيادة عن غيره².

ويمكن الخروج بتعريف اصطلاحي للفضل بكونه: اسماً جامعاً لكل ما فيه زيادة في الخير، ولكل مبادرة بالإحسان إلى الآخرين، والإنعام عليهم، من غير أن يكون ذلك واجباً أو مستحقاً على صاحبه، بل هو منّة وعطاء بلا مقابل، ومنه فضل الله الذي يعني كل خير يناله العباد من الله سبحانه، في دنياهم وأخراهم، من غير استحقاق منهم ذلك عليه.

¹ الزحيلي، وهبه، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، سوريا، ط4، 354/5

² انظر: الفاكهي (ت 972هـ) عبد الله بن أحمد، شرح كتاب الحدود في النحو، تحقيق: المتولي رمضان الدميري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1988، ص1988

المبحث الثاني: عرض الآيات والملحوظات واللفظات المتعلقة بالفضل

المطلب الأول: عرض الآيات حسب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم¹

اللفظ	الآية	السورة	مكية أم مدنية
فضل (5) مرات	﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٣٢)	النساء	مدنية
	﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٣٣)	النساء	مدنية
	﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٩٥)	النساء	مدنية
	﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾ (٩٥)	النساء	مدنية
	﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ (٧١)	النحل	مكية
فضلتكم (3) مرات	﴿ يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٧)	البقرة	مدنية
	﴿ قَالَ تَعَالَى: يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣٢)	البقرة	مدنية
	﴿ قَالَ تَعَالَى: أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٥٠)	الأعراف	مكية
فضلنا (4) مرات	﴿ قَالَ تَعَالَى: * تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ ﴾ (٢٥٣)	البقرة	مدنية
	﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُدَّادًا وَكَوْنًا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٨١)	الأنعام	مكية
	﴿ قَالَ تَعَالَى: أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (٥١)	الإسراء	مكية

¹ عبد الباقي، (ت 1967 هـ) — محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مصر، دار الكتب المصرية، 1364،

مكية	النمل	قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾	
مكية	الإسراء	قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي إِدْرَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾	فضلناهم (2)
مكية	الجمانية	قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾	
مدنية	الرعد	﴿وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴿٤﴾﴾	نفضل مرة
مكية	النحل	﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ﴾	فضلوا مرة
مكية	المؤمنون	مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾﴾	يتفضل مرة
مدنية	البقرة	﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:	فضل (29) مرة
مدنية	البقرة	﴿إِنِ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٢١٣﴾﴾	
مدنية	البقرة	﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾	
مكية	النمل	وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٧٣﴾	
مدنية	المزمل	﴿وَالْآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾﴾	
مكية	النمل	فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي ﴿٥٠﴾	
مدنية	آل عمران	﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾	
مدنية	آل عمران	﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴿١٧١﴾﴾	
مدنية	آل عمران	﴿فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴿١٧٤﴾﴾	
مدنية	آل عمران	﴿وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾﴾	

مدنية	الجمعة	﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ۖ ﴾ (١١)
مدنية	النساء	﴿ وَلَيْنَ أَصْبَكُمُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ۖ ﴾ (٧٢)
مدنية	النساء	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ (٨٢)
مدنية	النساء	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۖ ﴾ (١١٣)
مدنية	النساء	﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ۖ ﴾ (١٧٥)
مدنية	المائدة	﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۖ ﴾ (٥٤)
مكية	الأعراف	﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ۖ ﴾ (٣٩)
مكية	يونس	﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ ﴾ (٥٨)
مكية	يونس	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ۖ ﴾ (٦٠)
مكية	هود	﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ ﴾ (٣)
مكية	هود	﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ۖ ﴾ (٢٧)
مكية	يوسف	﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ۖ ﴾ (٣٨)
مدنية	النور	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ۖ ﴾ (١٠)
مدنية	النور	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ ﴾ (١٤)
مدنية	النور	﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴾ (٢٠)

مدنية	النور	وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴿١١﴾	الفضل (11 مرة)
مكية	فاطر	﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾	
مكية	غافر	﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٦١﴾﴾	
مكية	الشورى	لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾	
مدنية	الحديد	ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾	
مدنية	الحديد	لَيْتَ لَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقَدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾	
مدنية	آل عمران	﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴿٧٣﴾﴾	
مدنية	البقرة	﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾	
مدنية	آل عمران	﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾	
مدنية	النساء	﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا ﴿٧٠﴾﴾	
مدنية	الأنفال	﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾﴾	فضلاً (10 مرات)
مدنية	النور	﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴿٢٢﴾﴾	
مكية	النمل	﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾	
مدنية	آل عمران	﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴿٧٣﴾﴾	
مدنية	البقرة	﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٦٨﴾﴾	

مدنية	البقرة	﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۖ ﴾ (٦٨)	
مدنية	المائدة	﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۖ ﴾ (٢)	
مكية	الإسراء	﴿ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۖ ﴾ (٢٢)	
مدنية	الأحزاب	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرًا كَثِيرًا ۖ ﴾ (٤٧)	
مكية	سبا	﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنْهَا فَضْلًا ۖ ﴾ (١٠)	
مكية	الدخان	﴿ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ ﴾ (٥٧)	
مدنية	الفتح	﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ ﴾ (١٩)	
مدنية	الحجرات	﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ ﴾ (٨)	
مدنية	الحشر	﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ ﴾ (٨)	
مدنية	البقرة	﴿ بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ ۖ ﴾ (٩٠)	فضله (28) مرة
مدنية	آل عمران	﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ (١٧٠)	
مدنية	آل عمران	﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ ﴾ (١٨٠)	
مدنية	النساء	﴿ وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۖ ﴾ (٣٢)	
مدنية	النساء	﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ (٣٧)	
مدنية	النساء	﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ (٣٧)	
مدنية	النساء	﴿ فَيُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ (٧٣)	
مدنية	التوبة	﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ (١٠)	

مدنية	التوبة	وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴿٥٩﴾
مدنية	التوبة	وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ
مدنية	التوبة	﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْفِرُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ لَتَصَّدَّقُوا وَلَنْ كُنتُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٥﴾ ﴿
مدنية	التوبة	﴿ فَلَمَّا عَاهَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ۖ ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿
مكية	يونس	﴿ وَإِنْ يُرْذَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ ﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿
مكية	هود	وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ ﴿٣﴾
مكية	النحل	﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴿
مكية	الإسراء	﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴿٦١﴾ ﴿
مكية	الإسراء	﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۚ
مدنية	النور	إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴿٣٢﴾
مدنية	النور	﴿ وَلَيْسَتَعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴿٣٣﴾ ﴿
مدنية	النور	﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ
مكية	القصص	﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ ۖ ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿
مكية	الروم	﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴿٢٣﴾ ﴿
مكية	الروم	﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴿

مكية	فاطر	﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾	
مكية	فاطر	﴿ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٣٠﴾ ﴾	
مكية	فاطر	﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٣٥﴾ ﴾	
مكية	الشورى	وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٣٦﴾	
مكية	الجاثية	اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾	
مكية	الإسراء	أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾	تفضيلاً مرة واحدة
مكية	الإسراء	قَالَ تَعَالَى: ﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ . ﴾	

المطلب الثاني : الملحوظات واللفقات حول معاني الفضل في القرآن الكريم

وردت مادة فضل بكافة تصرفاتها في القرآن الكريم (مئة وأربع) مرات في (إحدى وثلاثين) سورة من سور القرآن الكريم، انقسمت بين (ست عشرة) سورة مكية و (خمس عشرة) سورة مدنية، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكر الإنسان باستمرار فضله عليه، ولذلك كان التكرار لصيغ الفضل، وكأنها طرقات تتوالى على بوابة النفس البشرية؛ لتوقظها من غفلتها، فجاء هذا الحشد الهائل من صيغ الفضل؛ لكي يظل الإنسان متنبهاً إلى أن الفضل - كل الفضل - لله سبحانه وتعالى، وفيما يأتي تفصيل سياقات ورودها، والصيغ التي أتت عليها في القرآن الكريم:

- صيغة الفعل الماضي المبني للمعلوم (فضل):

وردت (خمس عشر) مرة كما يأتي:-

(فضل الله) أربع مرات : مثل قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾¹، ووردت (والله فضل) مرة، حيث قدم لفظ الجلالة للاختصاص، وللدلالة على أن الرزق بيده وحده سبحانه، والزيادة فيه له سبحانه لا لغيره كما جاء في الآية: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾². ووردت (فضلتكم) مرتين كما جاء في الآية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾³، ووردت (فضلكم) مرة في الآية: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، في معرض تنكير بني إسرائيل بالنعمة. وجاءت (فضلنا) أربع مرات كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾⁵. ووردت (فضلنا) مرة على لسان داود وسليمان لبيان تفضيل الله لهما على غيرهما، حيث أخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان: ﴿الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁶، ووردت فضلناهم مرة واحدة : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁷.

- صيغة الفعل المضارع المبني للمعلوم:

وقد وردت مرتين؛ مرة (ونفضل)، حيث أفاد الفعل المضارع الدلالة على الاستمرارية في التمايز بين أنواع الأكل، كما قال تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁸، ومرة (ينفضل): حيث ذكرت على لسان الكافرين بحق نبي الله نوح، حين أُنذر

¹ النساء: 95

² النحل: 71

³ البقرة: 47

⁴ الأعراف: 140

⁵ البقرة: 253

⁶ النمل: 15

⁷ الجاثية: 16

⁸ الرعد: 4

قومه من عذاب الله، فكان ردّ الملائكة كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾¹.

- صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول:

وردت مرة واحدة (فُضِّلُوا) كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾².

- صيغة المصدر (فَضْلٌ) من الفعل الثلاثي (فَضَّلَ):

وهي الأكثر وروداً، حيث جاءت في (أربع وثمانين) مرة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾³ ولعل كثرة ورودها تهدف إلى تذكير الناس بمداومة الشكر لله على نعمه التي لا تحصى عليهم.

- صيغة المصدر (تَفْضِيلٌ) من الفعل (فَضَّلَ):

فقد وردت مرتين فقط في قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾⁴ وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁵.

- صيغة " فضل الله " و " من فضل ربي ":

فقد أضيف الفضل إلى الله أو الرب (اثنتي عشرة) مرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁶، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾⁷.

¹ المؤمنون: 24

² النحل: 71

³ آل عمران: 73

⁴ الإسراء: 21

⁵ الإسراء: 70

⁶ القرة: 64

⁷ النمل: 40

ووصف الله سبحانه وتعالى ذاته بأنه صاحب الفضل (إحدى عشر) مرة؛ كما في قوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾¹.

وقد وردت هذه الصيغة (سبع) مرات على شكل فاصلة قرآنية في ختام الآيات، منها

ست مرات جاء الفضل فيها معرفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾²، ومرة واحدة

فقط جاءت نكرة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾³.

وقد التفت بعض العلماء إلى السياق الذي انفرد فيه بتكرير فضل، مخالفاً السياقات

الأخرى التي جاءت (الفضل) فيها معرفة، بأنها وردت (والله ذو الفضل) عندما يعطي الله

سبحانه وتعالى، أو عند الاختصاص بالرحمة.

أما عندما تأتي الفاصلة القرآنية (والله ذو فضل عظيم) نكرة، فلم يعطهم سبحانه شيئاً،

ولكن لم يمسه السوء، يذكر الزمخشري في تفسير هذه الآية: "لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدوّ

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ بَجَرَّتْهُمُ" وخروجهم⁴، وقال الطبري: "والله ذو إحسان وطول عليهم

بصرف عدوهم الذي كانوا قد هموا بالكرة إليهم"⁵، وذكر ابن كثير: "لما توكّلوا على الله كفاهم

ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلادهم ﴿بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾

مما أضمر لهم عدوهم"⁶.

وأورد السامرائي أمثلة للتفريق بين الفاصلة القرآنية (والله ذو الفضل العظيم) و (والله

ذو فضل عظيم) حيث يقول في تفسير قوله تعالى في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)

لَلَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَا يَتَذَكَّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

¹ البقرة: 105

² في سور البقرة 105، وآل عمران 74، والأنفال 29، والحديد (21، 29) والجمعة 4

³ آل عمران: 174

⁴ الزمخشري (538)، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في

وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407، 442/1

⁵ الطبري، جامع البيان 414/7

⁶ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 171/2

الْفَضْلُ الْعَظِيمُ¹، ففي هذه الآية عطايا كثيرة: يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً ويغفر لكم، كلها عطاء.

أما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثُوا﴾²، ففي هذه الآية وهي الموضع الوحيد (ذو فضل عظيم)³ لم يعطهم شيئاً، لكن لم يمسه سوء، فمن لم يمسه بسوء، ليس كمن يختصه الله بالرحمة، أو كمن يجعل له نوراً ويغفر له⁴. وفي ذلك دليل على الدقة المتناهية للتعبير القرآني المعجز، الذي يضع لكل سياق ما يناسبه من الكلمات والمعاني.

- صيغة نسبة الفضل إلى الله، وأن الفضل مبتدؤه منه سبحانه وتعالى:
كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾⁵.

- صيغة إضافة الفضل إلى الله سبحانه "من فضله":
كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾⁶ وكل ذلك جاء في سبع وعشرين مرة.

- صيغة "إن الفضل بيد الله":
في ثلاث مرات كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾⁷.

¹ الحديد: 29

² آل عمران: 174

³ آل عمران: 174

⁴ السامرائي، فاضل على طريق التفسير البياني، عمان، دار الفكر ناشرون وموزعون، (ط2/2013) 371/3

⁵ يوسف: 38

⁶ النساء: 32

⁷ آل عمران: 73

-آيات ورد فيها معنى المفاضلة:

لفت نظر الباحث أن المواضع التي ورد فيها معنى المفاضلة بين الناس، أو الفئات، جاءت في

أربع آيات من القرآن الكريم، أتت كلّها في سورة النساء:

- 1- قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾¹
- 2- قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾²
- 3- قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾³
- 4- قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁴

كما التفت الباحث إلى أن سورة النساء هي السورة التي وردت فيها أكثر صيغ الفضل من بين سور القرآن الكريم، حيث بلغت (ثلاث عشرة) مرة، تليها سورة البقرة (إحدى عشرة) مرة، ثم سور: الإسراء، وآل عمران، والنور، التي وردت فيها ألفاظ الفضل (ثمانية) مرات في كل واحدة منها.

أما بقية صيغ الفضل فقد وردت في سور القرآن الكريم كالآتي حسب الترتيب التنازلي: التوبة والحديد، وردت فيها ألفاظ الفضل (خمس) مرات، ثم سور: النمل، وفاطر (أربع) مرات، ثم النحل، ويونس، وهود، والروم، والجمعة (ثلاث) مرات، ثم الأعراف، والجاثية، والمائدة، والشورى (مرتين)، ثم مرة واحدة في كل من سورة: الأنعام، والرعد، والمؤمنون، والأنفال، ويوسف، وغافر، والمزمل، والأحزاب، والفتح، والحجرات، والحشر، والقصاص.

¹ النساء: 32

² النساء: 34

³ النساء: 95

⁴ النساء: 95

المبحث الثالث: معاني الفضل في القرآن الكريم

جاء في كتاب الأشباه والنظائر لابن الجوزي¹ أن الفضل يأتي على ثمانية معان وهي كما يأتي:

المعنى الأول: الإنعام بالإسلام، ومنه قوله تعالى في آل عمران : ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ²﴾ وفي سورة يونس : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ³﴾.

فيأتي الفضل في القرآن الكريم بمعنى الإنعام بالإسلام، والهداية بشريعته، "فالهداية للإسلام بيد الله ، وإليه دونكم ودون سائر خلقه ، {يؤتيه من يشاء} من خلقه ، يعني : يعطيه من أراد من عباده، تكذيباً من الله عز وجل لهم في قولهم لأتباعهم : ﴿إِنْ يُؤْتِي أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ⁴﴾ ، فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم : ليس ذلك إليكم ، إنما هو إلى الله الذي بيده الأشياء كلها ، وإليه الفضل ، وبيده يعطيه من يشاء"⁵، وقال الرازي في مفاتيح الغيب : "والمراد بالفضل الرسالة"⁶، وذكر ابن كثير: "أي: اختصكم -أيها المؤمنون- من الفضل بما لا يُحد ولا يُوصَف، بما شرف به نبيكم محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد الشرائع"⁷.

¹ ابن الجوزي (597هـ) جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الرازي، مكتبة الرسالة، لبنان (ط1/1984) 473/1

² آل عمران: 73

³ يونس: 58

⁴ آل عمران: 101

⁵ الطبري 5/506

⁶ الرازي (ت 606) ، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت

(ط1/2000) 84/8

⁷ ابن كثير (ت774هـ)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن

محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، (ط2/1999) 60/2

المعنى الثاني: الإِنعام بالنبوة، وفيه يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾¹، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾²، "ومن فضل الله عليك يا محمد - مع سائر ما تفضل به عليك من نعمه - أنه أنزل عليك الكتاب؛ وهو القرآن الذي فيه بيان كل شيء، وهدى وموعظة، {والحكمة} يعني وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة"³ يقول الرازي: "والمعنى ولولا أن الله خصك بالفضل؛ وهو النبوة، وبالرحمة؛ وهي العصمة لهمت طائفة منهم أن يضلوك"⁴.

المعنى الثالث: الرزق في الدنيا، والتجارة؛ ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾⁵ وفي سورة الجمعة: ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁶. قال ابن كثير "أي: في المتاجر والمكاسب"⁷، "يعني فتحا وغنيمة وسعة في الرزق"⁸ وذكر الطبري: "والتمسوا من فضل الله الذي بيده مفاتيح خزائنه لدينكم وآخرتكم"⁹ وجاء عند القرطبي: "وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة"¹⁰ "وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم بفضله الذي تفضل عليكم"¹¹.

¹ النساء: 113

² الإسراء: 87

³ الطبري، جامع البيان، 481/7

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب 31/11

⁵ النساء: 73

⁶ الجمعة: 10

⁷ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 265/7

⁸ السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمتأثر 534/4

⁹ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن 384/23

¹⁰ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 413/2

¹¹ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن 305/18

المعنى الرابع: الرزق في الجنة، ومنه قوله تعالى في آل عمران: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹ ، وفي سورة النساء : ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾².

وهو فضل لا يشبهه فضل في الدنيا، ورزق لا يدانيه أي رزق في الدنيا، لذلك نجد المؤمنين يستبشرون، أي "يفرحون بما حباهم به تعالى ذكره من عظيم كرامته عند ورودهم عليه وفضل"، يقول: وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب على ما سلف منهم من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجهاد أعدائه³ وذكر القرطبي: "أي بجنة من الله. ويقال: بمغفرة من الله. (وَفَضْلٍ) هذا لزيادة البيان. والفضل داخل في النعمة، وفيه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنعم الدنيا"⁴.

المعنى الخامس: الجنة، ومنه قوله تعالى في الأحزاب : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾⁵. يقول الطبري: "يا محمد إنا أرسلناك على أمتك بإبلاغك إياهم ما أرسلناك به من الرسالة، ومبشرهم بالجنة إن صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربك"⁶، قال السيوطي "الفضل الكبير : الجنة."⁷ وجاء في تفسير مقاتل بن سليمان قال: "يعني الجنة"⁸.

والملاحظ أن هناك تداخل بين المعنى السابق والذي قبله، لكن الفرق واضح بينهما، ففي المعنى الخامس يرزق الله تعالى الإنسان الجنة ويدخله فيها، وفي المعنى الرابع يرزقه من نعيمها وما فيها من خير لا ينضب.

¹ آل عمران: 171

² النساء: 175

³ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن /398

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 4/275

⁵ الأحزاب: 47

⁶ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن 20/281

⁷ السيوطي، الدر المنثور 12/78

⁸ مقاتل، (ت 767 هـ) ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق:

أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت (ط1/2003) 3/50

المعنى السادس: المنّة والنعمّة، ومنه قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَ قَلِيلاً﴾¹ وفي سورة يوسف : ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾² وفي سورة النور : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾³، يأتي الفضل بمعنى المنّة والنعمّة، ذكر الطبري في تفسيره: " يعني بذلك جل ثناؤه: ولولا إنعام الله عليكم، أيها المؤمنون، بفضله وتوفيقه ورحمته"4 ويقول السيوطي: "يريد ولولا ما من الله به عليكم"5.

المعنى السابع: الخلف، ومنه قوله تعالى في البقرة : ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً﴾⁶، يقول الطبري: "يعني: ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقتكم، فيتفضل عليكم من عطاياه ويسبغ عليكم في أرزاقكم"7 وقال البغوي: " أي رزقا خلفا"8 وذكر السعدي: أي " إحسانا إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانشرح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة"9.

المعنى الثامن: التجاوز ، ومنه قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾¹⁰، يقول الطبري: "إن الله لذو تفضل على خلقه بتركه معاجلة من افتري عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا"11، وذكر ابن كثير معناها قائلاً: " أي في التأخير والإمهال"12.

¹ النساء: 83

² يوسف: 38

³ النور: 21

⁴ الطبري، 574/8

⁵ السيوطي، الدر المنثور 666/10

⁶ البقرة: 268

⁷ الطبري، جامع البيان، 571/5

⁸ البغوي (510هـ) أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر

والتوزيع (ط4/1997) 333/1

⁹ السعدي (1376 هـ) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن

معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة (ط1/2000) 115/1

¹⁰ يونس: 60

¹¹ الطبري، جامع البيان 113/15

¹² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 355/8

وهكذا نجد معاني الفضل ترد في سياقات متعدّدة في القرآن الكريم، بحيث يتأثّر معناها بالسياق الذي وردت فيه؛ فالفضل الذي هو الزيادة من الخير والنعم، يكون المقصود به -مرّة- الإسلام، والإنعام بالنبوّة، وكذلك إنزال الرزق في الدنيا والتجارة، ورزق الجنّة في الآخرة، والجنّة ذاتها فضل من الله، وكذلك المنّة والنعمة، والتجاوز عن المعاصي، وتأجيل العقوبة.

المبحث الرابع: الألفاظ ذات الصلة بمعنى الفضل

ثمة ألفاظ في القرآن الكريم، تتصل في بعض جوانب معانيها، مع معنى الفضل، من دون أن يصل ذلك إلى حدّ الترادف، الذي يعني اتفاق المعنى، مع اختلاف اللفظ؛ إذ يتميز أسلوب القرآن الكريم بدقة انتقائه للألفاظ، التي اختيرت بعناية، ويؤدّي الواحد منها المعنى المطلوب على أكمل وجه، ومن جميع النواحي، وفيما يأتي عرض لبعض هذه الألفاظ المتصلة في إحدى زواياها، بمعنى الفضل، وهي كالاتي:

اللفظ الأول: الإحسان

يقال "أحسنّت إلى فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به. ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن"¹ وقد قال تعالى لمن بيده فضل: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾²، وتتضمّن الآية معنى "الأمرُ بالإِنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القُرْبَات، ووجوه الطاعات"³، ويرتبط مفهوم الإحسان في الاستعمال اللغوي بالنفع والخير، وأحسن يعني جاء بفعل حسن، وكل نفع يسمّى إحساناً⁴، ويمكن الفرق بين الفضل والإحسان، في أنّ الإحسان قد يكون واجباً، وأحياناً قد لا يكون كذلك، أما الفضل فهو غير واجب، بل هو زيادة في الإحسان من غير استحقاق الإنسان لهذا الإحسان.⁵

اللفظ الثاني: الإنعام

يأتي الإنعام بمعنى: أن يوصل الإنسان عمل الإحسان إلى غيره⁶، ونقول: "نعمَ ينعمُ مثل فضِّلَ يَفْضُلُ"⁷، ولا يقصد من فعل الإنعام التعويض، أو المكافأة؛ فالإنعام إحسان من غير

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 166/10

² البقرة: 196

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 530/1

⁴ أنظر: العسكري، الفروق اللغوية، 170/1

⁵ أنظر: العسكري، الفروق اللغوية، 194/1

⁶ أنظر: الراغب، مفردات القرآن، 815/1

⁷ أنظر: لسان العرب، ابن منظور، 579/12

الحصول على عوض أو مقابل¹، ويقصد به أيضا المنفعة التي يفعلها الإنسان للإحسان إلى غيره². "والنعماء بإزاء الضراء، قال: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُمْ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّةٍ﴾"³4.

ويقال: "أنعم عليه؛ لأنه دخله معنى علوّ نعمة عليه، فهي غامرة له، ولذلك يقال: هو غريق في النعمة"⁵، والفرق بين الفضل والإنعام، أن الإنعام يكون من أعلى درجات الفضل⁶، ومن الفروق بينهما أن فضل الله يدلّ على ما عنده سبحانه، وهو في غنى عنه، أما النعمة فهي ما يظهر من أثر فضل الله على العباد، ففضل "الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه، والنعمة إشارة إلى ما يصل إلى العبد وهو محتاج إليه"⁷.

اللفظ الثالث: البرّ

في البرّ معنى الاتساع في الشيء، فالبرّ "خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتقّ منه البرّ؛ أيّ التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة، نحو: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾"⁸، وإلى العبد تارة، فيقال: برّ العبد ربّه؛ أيّ توسّع في طاعته"⁹.

فيشتمل معنى البر على التوسع في الإحسان إلى الغير¹⁰، و"التوسع في فعل الخير"¹¹، وهو التوسع في الإحسان وعمل الخير الكامل الشامل¹².

¹ أنظر: الجرجاني، التعريفات، 311/1

² أنظر: المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، 704/1

³ هود: 10

⁴ الراغب، مفردات القرآن، 815/1

⁵ العسكري، الفروق اللغوية، 194/1

⁶ ابن منظور، لسان العرب، 432/8

⁷ الرازي، مفاتيح الغيب، 103/28

⁸ الطور: 28

⁹ الراغب، مفردات القرآن، 114/1

¹⁰ أنظر: الزبيدي، (ت 1205هـ) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، تاج

العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، 10/ 151

¹¹ المناوي، (ت 1031) محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية،

بيروت، دار الفكر المعاصر، (ط 1410/1) 122/1

¹² أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 127/2

يقول الرازي: " أما البر فهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتها ومنه عمل مبرور، أي قد رضي به الله تعالى وقد يكون بمعنى الصدق كما يقال: بر في يمينه أي صدق ولم يحنث، ويقال: صدقت وبررت ، وقال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾¹ فأخبر أن البر جامع للتقوى"².

اللفظ الرابع: العطاء

هو اسم لما يعطى³، ومن معانيه خلق المنافع في الأشياء"⁴، وعطاء الله: يعني العطاء الواسع الذي لا تنتهي له، وهو ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل بل بمحض التفضل⁵.

اللفظ الخامس: الامتنان

وأصل المنّ هو الإنعام والفضل، ثم أطلق على عدّ الإنعام على من يُنعم عليه الإنسان⁶، والمنّة نعمة ثقيلة، فيقال منّ فلان على فلان أثقله بالنعمة، وقد تكون بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس، ويحسن ذكرها عند كفران النعمة⁷، وفي قوله تعالى: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ)⁸ أتت المنّة "منهم بالقول، ومنّة الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم"⁹، ومن الله محمود لما فيه من تفضل، ومن العباد مذموم لما فيه من توبيخ¹⁰.

¹ البقرة: 189

² الرازي، مفاتيح الغيب، 42/2

³ أنظر: ابن منظور، لسان العرب: 68/15

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 15/20

⁵ أنظر: الألوسي، تفسير روح المعاني، 46/8

⁶ أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 42/3

⁷ أنظر: المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف 682/1

⁸ الحجرات: 17

⁹ الراغب، مفردات القرآن، 778/1

¹⁰ أنظر: غلام ثعلب، (ت345هـ) أبو عمر محمد بن عبد الواحد البغدادي، ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن،

تحقيق: محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 286/1

اللفظ السادس: الزيادة

تأتي الزيادة أحيانا بمعنى الفضيلة والسعة¹، كما في قوله تعالى : ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾²، أي "وآتاه من العلم فضلا على ما أتى غيره من الذين خوطبوا بهذا الخطاب. وذلك أنه ذكر أنه آتاه وحي من الله، وأما "في الجسم"، فإنه أوتي من الزيادة في طوله عليهم ما لم يؤته غيره منهم"³ وزاده أي فضله بما تصلح بهما أمور الملك وهما قوة الرأي والجسم⁴.

اللفظ السابع: الخير

الخير ضد الشر وجمعه خيور، وخاره على صاحبه فضله، ورجل خير، وامرأة خيرة والجمع أخيار، والخيرات جمع خيرة وهي الفاضلة⁵، وهو كل ما يرغب فيه الإنسان، وهو ضد الشر، وفعل الخير يسمى فضلا، لأن فاعله قام بذلك لما زاد عن حاجته فصار الفضل بمعنى فعل الخير⁶، ومعنى قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾⁷ "أي أفضل. (وَحَيْرٌ أَمَلًا) أي أفضل من ذي المال والبنين دون عمل صالح"⁸.

وهناك فرق بين الخير والفضل، "فإذا كانت الأفضلية تتعلق بزيادة في المال، أو القوة، أو الجمال، أو العقل...، فإنَّ الخيرية تتعلق بزيادة الخير... من هنا كان الحكم الرباني الذي صدر في حق مجتمع الصحابة، رضوان الله عليهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ولم يقل سبحانه وتعالى: "كنتم أفضل أمة.."، لأنَّ الفضل يحتمل وجوهاً كثيرة، ولا يستلزم الخيرية إلا إذا كان فضلاً وتقوى"⁹.

¹ أنظر: البغوي، معالم التنزيل، 298/1

² البقرة: 247

³ الطبري، جامع البيان، 313/5

⁴ أنظر: السعدي، تفسير السعدي، 107/1

⁵ ابن منظور، لسان العرب، 264/4

⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 202/11

⁷ الكهف: 18

⁸ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 414/10

⁹ جرار، بسام، سياحة الفكر، فلسطين، مركز نون للدراسات، (ط1/2013) 126

الفصل الثاني

التفاضل بين الأنبياء والرسل

المبحث الأول: التفاضل بين الأنبياء

المبحث الثاني: فضل الله على أولي العزم من الرسل

المبحث الأول: التفاضل بين الأنبياء أنفسهم

المطلب الأول: أدلة التفاضل بين الأنبياء

أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء؛ لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك، وبيان طريق الهدى الذي فيه الخير للإنسان في الدنيا والآخرة، وإقامة الحجة على الناس، وقد اصطفى الله تعالى الرسل والأنبياء من خيرة البشر، وجعل الإيمان بهم من الأركان التي لا يصح إيمان الإنسان إلا بها، وبين سبحانه أن الأنبياء خير من البشر جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يُونُسَ لَوْطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹.

يخبر سبحانه وتعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، وقد أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض²، ولقد ثبت بالقران الكريم والسنة النبوية التفاضل بين الأنبياء.

ومعنى التفاضل بين الأنبياء: أن الرسل رغم علو مقامهم وما هم عليه من شرف المنزلة، إلا أنهم درجات متفاضلون عند الله سبحانه وتعالى، فقد اصطفى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الرسل من بين خلقه، واصطفى بعضهم وجعله في درجة عليا من هؤلاء المصطفين الأخيار . وسبب الإشارة إلى الرسل بالموثوث، في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾³، هي إشارة إلى جملة الأنبياء، ويعود ذلك إلى اعتبارهم كياناً واحداً، يحملون غاية واحدة، وهدف واضح وهو هداية الناس وإنقاذهم من الضلال⁴، والأنبياء جديرون أن يقتدي الناس بهم ويهتدون بهديهم، حتى وإن تميز بعضهم عن بعض بخصائص معينة قد تكون في أنفسهم أو في شرائعهم أو أممهم⁵.

¹ الأنعام: 86

² انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 521/6

³ البقرة: 253

⁴ انظر: الخطيب (ت 1429هـ)، عبد الكريم، التفسير القرآني للقران، دار الفكر العربي، القاهرة، 313/2

⁵ انظر: المراغي، (ت 1371هـ) أحمد مصطفى، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،

مصر، 4/3

ولا يعني التفاضل بين الأنبياء الانتقاص من النبي المفضل، أو التشكيك به، وإنما المقصود الزيادة في الإحسان، ومما يدل على هذا التفاضل الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية التي تشهد لهذا المعنى فيها، وفيما يأتي عرض لهذه الآيات:

الآيات التي تشير إلى التفاضل بين الأنبياء:

جاء في بعض آيات القرآن الكريم، أدلة تبين أن الله سبحانه وتعالى فاضل بين أنبيائه عليهم السلام، حيث قال الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾¹، وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾².

ويشهد لهذه الآيات أحاديث صحيحة، جاءت مفسرة ومؤكدة لما جاء في القرآن الكريم، من حيث إثبات التفاضل بين الأنبياء - عليهم السلام - ومن هذه الأحاديث:

عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون »³.

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع " ⁴.

وهناك بعض الآيات التي تشير إلى عدم وقوع التفاضل بين الأنبياء وأنه لا فرق بين الرسل عليهم السلام، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾⁵، وأجاب العلماء عما قد يبدو من تناقض للوهلة الأولى: بأن المقصود بذلك أنه لا يجوز أن يكون بعضهم أفضل من بعض في أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، فهم متساوون في ذلك⁶.

¹ البقرة: 253

² الإسراء: 55

³ مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد، حديث رقم 1195، 64/2

⁴ المرجع السابق، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا - صلى الله عليه وسلم - على جميع الخلائق، رقم: 6079، 59/7

⁵ البقرة: 258

⁶ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 111/7

كما أن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى، يُصدّقون بعضهم، وهم على منهاج واحد وهو الدعوة لتوحيد الله، وطاعته، ويقصد بـ (لا نفرق) في الآية أنه لا نؤمن ببعضهم ونكفر بآخرين، أو أن نتبرأ من بعضهم ونتولى آخرين، كما فعلت اليهود والنصارى، حيث تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرّوا بغيرهما، وتبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم وأقرّت بغيره من الأنبياء، بل يجب أن نشهد أنهم جميعا كانوا رسل الله وأنبياءه، بعثوا بالحق ودين الهدى¹.

كما لا ينبغي التفريق بين الأنبياء في الرسالة والتشريع، بل يجب الإيمان بأن دعوتهم واحدة وهي الإيمان بوجود الله، ووحدانيته، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأما التفضيل بين الرسل في قوله تعالى: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)²، إنما هو في غير الرسالة والتشريع، وفي هذا إشارة إلى أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض³.

ولا توجد هذه الخاصية إلا عند المسلمين؛ فهم يؤمنون بجميع الرسل والكتب السماوية، ولا يفرّقون بين الأنبياء، عكس اليهود والنصارى الذين لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم⁴. وقد ورد في السنة النبوية أحاديث تنهى عن المفاضلة بين الأنبياء عليهم السلام، ومن هذه الأحاديث:

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود قال المسلم والذي اصطفى محمدا على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلم فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم

¹ انظر: الطبري، جامع البيان، 2/596

² البقرة: 253

³ انظر: الزحيلي، (ت 2015 م) وهبه بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر

المعاصر، دمشق، (ط2/1418) 3/133

⁴ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص67

القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله¹.

وفي لفظ آخر روى البخاري عن أبي هريرة ، رضي الله عنه، قال "بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فذهب إليه فقال أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهي فقال لم لطمت وجهه فذكره فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى رئي في وجهه ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ، ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث فإذا موسى أخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي².

و"عن قتادة قال : سمعت أبا العالية ، حدثنا ابن عم نبيكم ، يعني ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه³.

المطلب الثاني: التفاضل بين الأنبياء والرسل

ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز أنه بعث أنبياء ورسلًا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾⁴، وقال تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾⁵.

والفرق بين الرسول والنبي: أن النبي أوحى إليه بشرع، ولم يؤمر بالتبليغ، فإن أمر بالتبليغ فهو رسول⁶.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم: 2411، 159/3

² المرجع السابق، كتاب بدء الوحي، باب قول الله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين}، رقم: 3414، 194/4

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب قول الله عز وجل {وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً}، رقم: 3395، 186/4

⁴ الحج: 52

⁵ مريم: 51

⁶ أنظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ص49

فالرسول من أوحى إليه الله تعالى بشرع وأمره أن يبلغ ما أمر به، وأما النبي فهو من أوحى إليه الله بشرع دون أن يكلف بالتبليغ، ولكنه لم يمنع من التبليغ، ومعنى ذلك أنه نبيٌ إليه بشرع ولم ينهه عن التبليغ، فإذا بلغه كان متطوعاً، فالفرق بينهما: أن الرسول ملزم بالتبليغ والنبي غير ملزم، لكنه غير ممنوع من التبليغ، بل يعمل ويجدد الشرع ولكنه لا يلزم بالتبليغ، وهذا سبب تفضيل الرسول على النبي؛ لأن الرسول ألزم بالتبليغ، وذلك فيه زيادة تكليف، والتكليف ليس أمراً سهلاً، لما في ذلك من معاناة وتعب مع البشر¹.

والشائع عند العلماء أن المقصود بالرسول: هو الذي أوحى إليه من الله سبحانه وتعالى بشرع جديد²، كما ويقصد بالنبي: هو الذي بعثه الله سبحانه وتعالى لتقرير شرع من قبله من الرسل³.

ويرجح جمهور العلماء أن الرسول أفضل ممن لم يرسل، لأنه فضل عليه بالرسالة مع الاستواء في النبوة⁴.

ويرى الماوردي أن الرسول أعلى منزلة من النبي ولذلك؛ سمى الله تعالى الملائكة رسلاً لا أنبياء، لأن منزلة الرسول أعلى، وسبب تفضيل الرسول: أنه يوحى إليه، وهو مبعوث إلى أمة والنبي لا يبعث، والرسول هو المبتدئ بالشرائع والأحكام والنبي من يحفظ الشريعة⁵.

ومن أسباب تفضيل الرسول على النبي أن النبوة جزء من الرسالة، والرسالة أكثر شمولية من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها؛ فكل رسول نبي وليس العكس، فالأنبياء أعم، والنبوة هي جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها عكس النبوة؛ فإنها لا تتناول الرسالة⁶.

¹ انظر: ابن عثيمين (ت 1421هـ) محمد بن صالح بن محمد، شرح العقيدة السفارينية - الدرر المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، دار الوطن للنشر، الرياض، (ط1/ 1426هـ) 568/1

² انظر: الأشقر، (ت 1433 هـ) عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، و دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، (ط4/ 1989)، ص15

³ المرجع نفسه، 15/1

⁴ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 263/3

⁵ انظر: الماوردي (ت 450هـ) : أبا الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، أعلام النبوة، دار مكتبة الهلال، بيروت، (ط1/ 1409 هـ) 51/1

⁶ انظر: ابن تيمية، (ت 728هـ)، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، الفتاوى الكبرى، تحقيق : أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، (ط3/ 2005) 10/7

كما أن الرسالة ضرورية لإصلاح العبد في الدنيا والآخرة، فكما أنه لا صلاح في الآخرة إلا باتباع الرسالة، وكذلك لا صلاح له في الدنيا إلا باتباع الرسالة¹.

ولم يخالف الإجماع على أن الرسول أفضل من النبي، إلا العز بن عبد السلام² مبرراً ذلك بأن "النبوة إخبار عما يستحقه الرب من صفات الجمال ونعوت الكمال وهي متعلقة بالله من طرفيها، والإرسال دونها، أمر بالإبلاغ إلى العباد فهو متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر، ولا شك أن ما يتعلق من طرفيه أفضل مما يتعلق به من أحد طرفيه"³، وأضاف سببا آخر، يتعلق بالسبق، فقال: إن النبوة "سابقة على الإرسال فإن قول الله لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مقدم على قوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فجميع ما تحدث به قبل قوله: اذهب إلى فرعون نبوة، وما أمره بعد ذلك من التبليغ فهو إرسال"⁴.

ولا يعتد برأي هذا العالم الجليل في هذا المقام، فهو من جهة مخالف لما أجمع عليه العلماء أن الرسول أفضل من النبي، ومن جهة أخرى يغفل عن تمييز الرسول بالرسالة، التي هي زيادة فضل إلى فضل، حيث يجتمع في الرسول فضلا النبوة والرسالة، كما أنه قد يتمخض عن الرسالة هداية الأمة، وأما النبوة فهي قاصرة على النبي، فنسبتها إلى النبوة كنسبة العالم إلى العابد⁵، وهو رأي جمهور العلماء.

فالعابد تنحصر العلاقة ما بينه وبين ربه، صلاة وتعبداً وصياماً، وتقرباً إلى الله وقياماً، أما العالم، فينتشر علمه بين الناس، ويهتدي بعلمه خلق من الناس.

¹ المرجع السابق، 99/19

² أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السلمي الشافعي الملقب بسلطان العلماء وبائع الملوك وشيخ الإسلام، ولد عام (577 هـ) وهو عالم وقاضٍ مسلم، برع في الفقه والأصول والتفسير واللغة، ابن كثير، البداية والنهاية، 235/2

³ السلمي، (ت660هـ) أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، دار المعارف بيروت، لبنان 299/2

⁴ المرجع السابق، 299/2

⁵ انظر: السفاريني (ت 1188 هـ)، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق

(ط2/1982) 50/1

المطلب الثالث: التفاضل بين الرسل أنفسهم

ذكرت الآيات أولي العزم من الرسل، والراجح من خلال هذه الآيات، أن أولي العزم أفضل الرسل¹، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾²، "ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم"³.

وقد رجّح ابن تيمية ذلك حيث يقول: "أفضل أولياء الله هم أنبيأؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم"⁴، وقد اصطفى الله سبحانه الأنبياء على البشر، واصطفى منهم أولي العزم، وهم أعلى الخلق درجة، وأكملهم، فالوحي إليهم بالشرعية كان يتناسب مع أحوالهم⁵.

وقد اختلف العلماء في تعيين أولي العزم على عدة آراء منها :

- الرسل جميعاً كانوا أولي عزم، وإنما أدخلت "من" للتجنيس لا للتبويض.
- الأنبياء كلهم أولو عزم إلا يونس بن متى؛ لأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾⁶، لكن القرآن الكريم صرح أن آدم عليه السلام ليس من أولي العزم⁷، قال تعالى: ﴿وَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾⁸.
- نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام، وهم ثمانية عشر، لقوله تعالى بعد ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾⁹.

¹ انظر: الأشقر، الرسل والرسالات، ص: 217

² الأحقاف: 35

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 87/5

⁴ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، 161/11

⁵ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص754

⁶ القلم: 48

⁷ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 301/13

⁸ طه: 115

⁹ الأنعام: 90

- هم ستة: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم السلام، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء.

- هم أصحاب الشرائع وعددهم خمسة نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم.¹

والراجح من الآراء السابقة، هو الرأي الأخير، وأن أولي العزم خمسة وهم: محمد صلى الله عليه وسلم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومن الأدلة على ذلك، تكرار ذكر هؤلاء الرسل في القرآن في أكثر من موضع، كما في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾²، وكما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾³.

فالرسل الذين أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر كما صبروا - أربعة ، فصار النبي صلى الله عليه وسلم - خامسهم.

وليس صحيحاً بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وهو ما يخالف النصوص من الآيات القرآنية التي تتحدث عن يونس وأنه صاحب الحوت، فأمر الله نبيه بالصبر كما في الآية الواردة "وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ"⁴، ومن الأدلة أيضاً ما جاء في حق آدم عليه السلام: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً)، فأية «القلم»، وأية «طه» المذكورتان كلتاهما تدلان على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل⁵.

وقد تأمل العلماء في الحكمة من تخصيص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر، ورأوا أن ذلك عائد؛ لأنهم أصحاب شرائع، وأتباعهم كثر، ولاستمالة قلوب الكفرة، وقد ابتدأ بنوح عليه السلام

¹ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 220/16 والبغوي، معالم التنزيل، 271/7-272

² الشورى:13

³ انظر: الأشقر، الرسل والرسالات، 217/1

⁴ القلم:48

⁵ انظر: الشنقيطي، (ت 1393هـ) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في

إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، (ط:1995) 241/7

لأنه أول الرسل، وأوصاه بالرسالة الممتدة إلى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، للإشارة إلى أن شريعته صلى الله عليه وسلم هي الشريعة الكاملة¹.

وقد رجّح هذا الرأي شيخ الإسلام ابن تيمية، فهو يرى أن المرسلين أولو العزم هم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم².

ولا يخفى فضل هؤلاء الرسل على الناس بالهداية؛ ولذلك كانوا هم الأرفع عند الله "درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه، وبالجملّة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبّد وأطيع، وبهم حصلت محبة الله تعالى في الأرض"³.

وآخر أولي العزم هو محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أفضلهم وسيدهم⁴، وهذا ما سيأتي الحديث عنه في مبحث تال، والذي سيكون عن فضل النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

المطلب الرابع: أوجه التفاضل بين الأنبياء

التفاضل بين الأنبياء قد يكون بأمر متعددة، وليس في أمر واحد، لذلك منهم الرسل، ومنهم أولو العزم من الرسل، ومنهم من رفعه الله مكانا عليا، ومنهم من آتاه الله الحكم صبيّا، وبعضهم أوتى الزبور، وآخرون أوتوا البينات، ومنهم من كلم الله مثل موسى، ورفع بعضهم درجات، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾⁵، وقال ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾⁶، قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد هنا قد يحدث بوحدة أو أكثر من الأمور الثلاثة:

¹ انظر: لقاسمي (ت 1332هـ) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق:

محمد باسل عيون السود، (ط1/1418) 359/8

² انظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، 161/11

³ ابن القيم، (ت 751 هـ) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق : عمر بن

محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، (ط2/1414هـ) 516/1

⁴ انظر: أبو العز الحنفي، (ت:792هـ) صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرع

الصالحى الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق : جماعة من العلماء ، تخريج : ناصر الدين الألباني،

(ط1/2005) 163/1

⁵ الإسراء: 55

⁶ البقرة: 253

- 1- أن تكون آية النبي ومعجزاته أبهر وأشهر.
 - 2- أن أتمه أزكى وأكثر أو يكون في ذاته أفضل وأظهر.
 - 3- أن النبي فضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه¹.
- فقد يتعلق التفضيل: "بالمحيط المقدر للرسول، والذي تشملته دعوته ونشاطه، كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل. أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال . كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأتمه، كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية"².

ومن مظاهر هذا التفضيل أن فضل بعضهم بسبب ما أودع الله سبحانه فيهم من صفات حميدة، وأفعال حسنة، ولما في أعمالهم نفع عام؛ فمنهم من خصه الله بالكلام كموسى عليه والسلام، ومنهم من رفعه الله درجات على سائر الأنبياء مثل نبينا صلى الله عليه وسلم، حيث اجتمعت فيه فضائل ما تفرق بينه وبين غيره، وله من المناقب ما يتفوق به على الأولين والآخرين { وآتينا عيسى ابن مريم البينات } التي تدل على نبوته، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأيده الله بروح القدس الذي هو الإيمان، واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل إن مما أيده الله به أن جبريل عليه السلام كان يلزمه في أحواله كلها³.

والتفاضل بين الأنبياء فيه وجهان :

أحدهما: في الآخرة، وذلك بسبب تفاضلهم في الأعمال، وتحملهم الأثقال.

والثاني: في الحياة الدنيا حيث جعل بعض الأنبياء خليلاً، وكلم بعضهم، وجعل بعضهم ملكاً، وسخر لبعضهم الريح والشياطين، وأحيا بعضهم الموتى، وأبرأ الأكمه، والأبرص⁴.

¹ انظر: عياض، (ت 544) أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلاً بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، للشمني، أحمد بن محمد بن محمد المتوفى: (873هـ) دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1/227/1988.

² قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 1/282.

³ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص109.

⁴ انظر: الماوردي، النكت والعيون (تفسير الماوردي)، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت،

المطلب الخامس: مسلك العلماء في الجمع بين الآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض في التفضيل بين الأنبياء

أجاب العلماء على هذا التعارض الذي قد يبدو بين الأحاديث الصحيحة وبعض آيات القرآن الكريم بمسألة التفاضل بين الأنبياء، وكانت لهم عدة آراء:

الرأي الأول: النهي إذا كانت المفاضلة تؤدي إلى الشجار والنزاع

يذهب فريق من العلماء إلى أن النهي الوارد، هو ما كان يؤدي إلى خصومة ونزاع، وكانت المفاضلة تقوم على العصبية الجاهلية.

فالتفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والفتنة كما هو المشهور في سبب ورود الحديث¹، هو المنهي عنه، فقد جاء في الحديث: أنه استب رجالان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود قال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم المسلم فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تخبروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش² جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله³.

الرأي الثاني: النهي إذا كانت المفاضلة تؤدي إلى الانتقاص من قدر الأنبياء

الأنبياء والرسول كلهم أصحاب منزلة عالية، ومقام شريف عند الله سبحانه وتعالى، فهم صفوة البشر، ولا يجوز المفاضلة بينهم بهدف الانتقاص من قيمة أحدهم.

¹ انظر: النووي، (ت676هـ)، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط2/1392) 32/15

² باطش: أخذ بشيء من العرش بقوة، أنظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، 105/8

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم: 2411،

فالنهي عن المفاضلة يقصد به ترك المفاضلة التي تقوم على الإضرار ببعضهم، والإخلال بحقوقهم، فذلك قد يؤدي إلى فساد، وإلى الكفر¹، ونهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن التفضيل الذي فيه انتقاص من المفضل².

وقد يكون المراد من الحديث: "لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضل فضيلة، فالإمام مثلا إذا قلنا إنه أفضل من المؤذن، لا يستلزم نقص فضيلة المؤذن بالنسبة إلى الأذان"³.

الرأي الثالث: النهي إذا كان التفضيل بمجرد الرأي من غير دليل

لا ينبغي لأي إنسان أن يتحدث في أي أمر من أمور الدين بلا علم ولا دليل، وإن فعل ذلك فهو دليل على الجراءة على دين الله، وهذا قد يدخل الإنسان في الحرام. وفي هذا السياق ورد النهي عن التفضيل إن كان بلا دليل، وإن كان "بآرائنا وبما لم يوقفنا عليه ولم يبينه لنا، فأما ما بينه لنا وأعلمنا، فقد أطلقه لنا وعاد ما نهى عنه في هذا الباب إلى ما سوى ذلك مما لم يبينه لنا ولم يطلق لنا القول فيه"⁴.

يظهر من خلال ما سبق أن الحديث بهذه المسائل يحتاج إلى دليل، وإن فقد الدليل فلا داعي للحديث بها، فربما تكون من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله سبحانه.

الرأي الرابع: أن النهي عن المفاضلة كان من تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر الناس تواضعا، وكان يذكر الناس بذلك على الدوام، وقد حذر من الكبر، فلعل الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن المفاضلة من باب التواضع.

¹ انظر: البغوي، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت، (ط2/1983م) 205/13

² انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 436/14

³ ابن حجر، فتح الباري، 444/6

⁴ الطحاوي، (ت321هـ)، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري

المعروف بالطحاوي، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، (ط1/1494م) 57/3

فيكون قوله: "لا تفضلوني"، من تواضعه-صلى الله عليه وسلم¹ -، فكل هذا "من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين"².

الرأي الخامس: أن النهي عن التفاضل بالنبوة جملة واحدة، والتفاضل ببعض الخصائص
اصطفى الله تعالى بعض خلقه على غيرهم؛ لحمل النبوة، فالنبوة مزية عظيمة يشترك فيها الأنبياء جميعاً، مع تفاضل بعضهم بخصائص عن الأنبياء الآخرين، يستثنى منها "النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات المتباينات"³.

الرأي السادس: النهي عن التفضيل التفصيلي، ولا مانع من التفضيل جملة واحدة
لقد تحدّثت الآيات القرآنية عن التفاضل بين الأنبياء، من غير الحديث عن تلك التفاصيل التي يتفاضل بسببها الأنبياء فيما بينهم، ومن أجل ذلك رجّح فريق من العلماء أن التفضيل يجوز إذا كان على سبيل الإجمال، لا على سبيل التفضيل.
فالنهي عن التفضيل الذي فيه تفصيل على عكس التفضيل الذي فيه إجمال؛ كتفضيل الرسل على الأنبياء، وتفضيل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الرسل لما ثبت من آيات تتحدث عن تفضيله وتفضيل القرآن، وتفضيل دين الإسلام⁴.

الرأي السابع: التفضيل خاص بالله سبحانه في القرآن لا بالعباد، والسنة تنهى العباد أن يفعلوا ذلك.

خلق الله سبحانه وتعالى البشر، وهو المتصرف بشؤونهم، فالمفاضلة بين المخلوقات جميعاً، أو بين البشر أنفسهم، أو بين الأنبياء والرسل، هو شأن من شؤونه سبحانه فهو أعلم بهم

¹ انظر: ابن قتيبة، (276هـ) عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري، تأويل مختلف الحديث، دار الجيل، بيروت، 1972، 1/116

² ابن كثير، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، (1/1988م) 272/1

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 3/261

⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير 2/483

وليس من شأن البشر، فمهما بلغ الإنسان من العلم في كتاب الله يبقى علمه محدوداً، والتفضيل بين البشر راجع إلى علم الله تعالى وحكمته.

وبناء على ذلك فإن تفضيل القرآن لبعض أنبيائه لا يفتح المجال لنا لنفضل بعضهم على بعض، فأسباب تفضيل بعض الأنبياء على بعض مخفي عن البشر، وعلمها عند الله سبحانه، فمزايا بعض الأنبياء قد تكون مجهولة عند أتباعهم، فكيف بالأنبياء الآخرين، فالتفضيل بين الأنبياء لا ينبغي إلا لمن يعلم أسباب هذا التفاضل، وهو ما لا يتوفر لمن يفعله، فالقرآن فاضل بين الأنبياء، والسنة نهت عن ذلك، فلا تعارض بين الآيات التي تفاضل، والأحاديث التي تنهى عن المفاضلة¹.

تلخص الآراء السابقة الأوضاع التي يحصل بها النهي عن المفاضلة، مثل أن تكون من غير دليل، أو إذا أدت إلى انتقاص في المفضل، أو سببت الخصومة والتنازع، أو تترك أي فضيلة للمفضل².

وحين يتم الحديث عن تفضيل الرسول عليه الصلاة والسلام على جميع الناس نتكلم به خبراً عما قال الله، ولكننا لا نتكلم حينما يكون في ذلك شرٌّ وفساد³.

ولا تعارض إذاً بين الآيات والأحاديث الواردة، فالقرآن فاضل بين الأنبياء، والأحاديث نهت عن التفضيل الذي يؤدي إلى الفتنة الخصومة، أو يؤدي للانتقاص من فضلهم، أو إذا كان مبنياً على العصبية والحمية⁴.

كما وينبغي التأكيد أن التفاضل بين الأنبياء ليس انتقاصاً من أحدهم، إذ يقتضي التفاضل الاشتراك بالفضل مع زيادة من دون انتقاص، فإن قلنا: زيد أفضل من عمرو، فلا يعني ذلك أن عمرواً فيه نقیصة، بل كلامهما فيه إحسان، إلا أن زیداً أكثر إحساناً من عمرو، ونهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المفاضلة للأسباب السابقة آنفة الذكر، وهي خشية وقوع الشجار

¹ انظر: الشوكاني، (ت 1250هـ) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير، دار ابن كثير، دار

الكلم الطيب، دمشق، بيروت (ط 1414/1هـ) 308/1

² انظر: ابن حجر، فتح الباري، 446/6

³ انظر: ابن عثيمين، شرح العقيدة السفارينية، 565/1

⁴ انظر: الأشقر، الرسل والرسالات، 223

والنزاع، أو إذا أفضت المفاضلة إلى انتقاص، أو كانت لا تقوم على دليل، أو من باب تواضعه صلى الله عليه وسلم، أو أن يكون التفاضل بأصل النبوة، أو أن يكون التفضيل تفصيلاً، أو أن يقوم البشر بالمفاضلة بين الأنبياء من ذات أنفسهم، من دون دليل في القرآن أو السنة النبوية الشريفة.

المبحث الثاني: فضل الله على أولي العزم من الرسل

الأنبياء هم خيرة البشر ممن خلق الله، وسبق الكلام أن أفضل الأنبياء هم أولو العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووضح الباحث أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء والرسل وكافة البشر. والحكمة في ذكر أولي العزم في كثير من آيات القرآن الكريم أن ذكرهم جاء تذكيراً من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم، ولتثبيته للمضي في حمل الرسالة وتبليغها، وأمره بالتأسي بأولي العزم الذين صبروا على ما لقوا من الصعوبات والمكاره والأذى، فاصبر يا محمد على أذاهم وتكذيبهم، فهؤلاء الأنبياء صبروا على هذا الامتحان، بل ازدادوا صبراً وثباتاً على دعوتهم¹، وسيتناول هذا المبحث بعض الفضائل التي ذكرها القرآن الكريم:

المطلب الأول: فضل الله على النبي نوح عليه السلام

ورد اسم نوح عليه السلام ثلاثاً وأربعين مرة في القرآن الكريم، وذكر الله سبحانه تفاصيل عديدة لمعاناته وجداله مع قومه، وصبره على أذاهم، ولبلائه العظيم مع ولده الذي اختار الكفر على الإيمان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾².

ابتدأ الله سبحانه وتعالى قصة نوح عليه السلام، بنداء نوح لربه، وفي ذلك موعظة لكفار قريش، ليحذروا من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ربه، بأن ينصره عليهم، كما فعل نوح حيث دعا على قومه³، ولقد أخبر الله تعالى عن الأمم السابقة، أنهم ضلوا عن طريق الهدى، فذكر ما لقي نوح عليه السلام من قومه من التكذيب، وقلة العدد الذي آمن به رغم طول

¹ انظر: الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، 144/22

² الصافات: 81

³ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 45/23

المدة التي دعاهم فيها، حيث بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال تكذيبهم، دعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله عليهم وعذبهم وانتصر لنوح عليه السلام¹.

تفضل الله سبحانه وتعالى على نوح عليه السلام بكثير من الفضل؛ لصبره على ما لقيه من تكذيب قومه، وما ذاقه من أذاهم، وثباته على دعوته، ومن هذه الأفضال التي منحه إياها سبحانه وتعالى.

لقد خصصه بفضائل وتشريفات، حيث جعل من تبقى من الكون من ذريته، بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته، وجعل ذكره باقياً على ألسنة البشر جميعاً، ولأجل ذلك كان محسناً، وتعليل ذلك، بأنه كان عبداً مؤمناً، مطيعاً لله سبحانه².

المطلب الثاني: فضل الله على إبراهيم عليه السلام

لقد ورد ذكر إبراهيم في القرآن الكريم نحو اثنتين وستين مرة، وتدعي اليهودية والنصرانية أنه كان نبيها، لكن القرآن الكريم أوضح أنه كان حنيفاً مسلماً، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾³، كما أنه هو الذي سمى المسلمين بهذا الاسم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾⁴، كما دعا (وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ)⁵، ولقد منحه الله سبحانه وتعالى الكثير من الفضائل التي تفضل بها عليه ومن هذه الفضائل:

أولاً: اتّخذه خليلاً

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾⁶ ومن الأسباب التي اتخذ الله سبحانه لأجلها إبراهيم عليه السلام خليلاً؛ لطاعته لله عز وجل، وإخلاصه في عبادته، ومسارعة إلى رضا الله

¹ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 22/7

² انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 338/26

³ آل عمران: 67

⁴ الحج: 78

⁵ البقرة: 128

⁶ النساء: 125

ومحبته، والله ليس بحاجة إلى اتخاذ خليل؛ لأن له ما في السماوات والأرض¹، لكن إبراهيم عليه السلام، قد وصل إلى غاية ما يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه، فانتهى إلى درجة الخلّة وهي أرفع درجات المحبة، وذلك لكثرة طاعته لله سبحانه²، وكذلك تحدّث الله عز وجل عن اصطفاؤه في الدنيا: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾³ أي اخترناه للرسالة فجعلناه صافياً من "واللفظ مشتق من الصفة، ومعناه تخير الأصفى. قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، والصالح في الآخرة هو الفائز⁴.

ثانياً: وصفه بأعظم الصفات

لقد وصف الله سبحانه، إبراهيم عليه السلام بصفات عالية شريفة⁵ وهذه الصفات وردت في آيات متعددة، وكانت كما يأتي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾⁶.

فقد ذكر سبحانه أن إبراهيم كان أمةً وحده، وبأنه كان حنيفاً، وكان شاكراً لله، فكان نتيجة ذلك أن اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم.

ولفظ الآية يحتمل أنه يعدل أمة كاملة، ويحتمل أنه كان إماماً يقتدى به في الخير، وهما قريبان فالذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدأته، فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد، «قَانِتًا لِلَّهِ» طائعا خاشعا عابدا «حَنِيفًا» متجها إلى الحق مانثلا إليه «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون «شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ» بالقول والعمل، لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا ، ويكفرونها عملا ، ويشركون في رزقه لهم

¹ انظر: الطبري، جامع البيان، 252/9

² انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 422/2

³ البقرة: 130

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 133/2

⁵ انظر: المرجع السابق، 285/20

⁶ النحل: 120

ما يدعون من الشركاء، ويحرّمون نعمة الله عليهم اتّباعاً للأوهام والأهواء، «اجتَبَاهُ» اختاره «وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو صراط التوحيد الخالص القويم¹.

وقد وصفه الله سبحانه كذلك بأنه كان (صديقاً نبياً)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾²، فالصديق: كثير الصدق، وإبراهيم صادق بجميع أقواله وأفعاله وعلى جميع أحواله، وكان مصدقاً بكل ما أمره الله أن يصدق به، وهذا يتطلب الإيمان اليقيني الذي دخل القلب، وكان له أثر فيه، وهذا يستوجب العمل الصالح، وإبراهيم عليه السلام، أفضل الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم³.

وكذلك وصف الله إبراهيم عليه السلام بأنه حليم أوّاه منيب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾⁴، وهي صفات مترابطة اجتمعت فيه، فهو حليم لا يتعجل بعقاب بل يؤخر ويعفو، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله (أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)؛ لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير فلما رأى مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه⁵ فلذلك تم وصفه عليه السلام بأنه منيب لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم⁶.

ومما وصف به إبراهيم عليه السلام بأنه صاحب قلب سليم، كما في قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾⁷، أي: بقلب خالص من الشوائب، لم يخرج عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وقد كان بعيداً عن النقائص والآفات، ظلّ على توحيد الله، وأنكر على كل من غير وبدل وانحرف نحو الشرك⁸.

¹ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 2201/4

² مريم: 57

³ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 494

⁴ هود: 75

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 25/18

⁶ انظر: المرجع السابق، 25/18

⁷ الصافات: 84

⁸ انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 215/8

ومن فضائله المذكورة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾¹ ، أي الذي وفى الله بكل ما أمره به²، فكان من صفاته الوفاء، فقد كان وفياً بوعده الله³، فهذه شهادة جليلة من الله لإبراهيم الذي بلغ "مقاماً عظيماً، وهو مقام الوفاء بشهادة الله عز وجل، وعادة الإنسان أنه لا يوفى، ولا يستقيم لسبب الضعف والقصور، ولأجل وفائه استحق الثقة والبشرى من الله عز وجل حيث جاء في الآية التي يخاطب الله فيها إبراهيم: ﴿قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾⁴، حيث جعله قائداً، يقود الناس إلى الله، ويتقدمهم إلى الخير، والناس يكونون له تبعاً، وتكون له قيادتهم نحو طريق الهدى⁵.

ثالثاً: آتاه الله تعالى الرشد

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾⁶ ، أي آتاه الله رشده وكان يعلم كماله وطهارته⁷، كما ومنحه الله الهدى والصلاح إلى الخير في أمور الدين والدنيا منذ صغره، وهداه إلى الاستدلال على الوجدانية، وكان الله يعلم أنه يستحق فضل النبوة⁸.

رابعاً: آتاه الله تعالى الحجج لمواجهة الكفار

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾⁹، فقد رفعه الله، بما آتاه من حجج وبراهين على الإيمان أمام القوم المشركين، وفي ذلك "إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاسمهم وغلبهم بالحجة"¹⁰، "فهذه كلها درجات العلم والحجة"¹¹، ولما واجههم بهذه الحجة

¹ النجم:38

² أنظر: الطبري، جامع البيان، 18/2

³ أنظر: رضا، تفسير المنار، 48/11

⁴ البقرة:124

⁵ أنظر: قطب، في ظلال القرآن، 112/1

⁶ الأنبياء:51

⁷ أنظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 93/13

⁸ أنظر: الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1/1997) 243/2

⁹ الأنعام:83

¹⁰ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 30/7

¹¹ رشيد رضا، تفسير المنار، 180/4

التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة .. وهكذا يرفع الله من يشاء درجات، متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه¹.

المطلب الثالث: فضل الله على موسى عليه السلام

يعدّ موسى عليه السلام، أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، وقد تكرر اسمه، ستاً وثلاثين ومئة مرة، وفصل الله سبحانه في حياته ما لم يفصل في حياة الرسل الآخرين، وقد ذكر الله تعالى له سيرة طويلة، وذكرت قصصه بالقرآن الكريم، وتتوعد أساليب ورودها، ولا يوجد في القصص القرآني أعظم من قصته؛ لإرساله إلى فرعون وجنوده، ومعالجة قضية بني إسرائيل. وهو أعظم الأنبياء عند بني إسرائيل، وشريعته وكتابه التوراة هو المرجع لأنبياء بني إسرائيل وعلمائهم²، وفيما يأتي أبرز وجوه التفضيل التي خصّ الله سبحانه وتعالى بها موسى عليه السلام:

أولاً: تكليم الله تعالى له مباشرة

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾³، وجاء في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾⁴، وفي سورة مريم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾⁵.

بين الله سبحانه وتعالى أنه اختص موسى عليه السلام بخطابه مباشرة من جانب الطور الأيمن حيث كان موسى، كما اختصه بالكلام والمناجاة، من غير إدراك بشري لهذا الكلام.. هل كان صوت يسمع أم يتلقاه الإنسان؟ فينبغي الإيمان بذلك وأن الأمر هين على الله⁶، ولذلك يوصف موسى-عليه السلام- بأنه كليم الله، "فهذه الآيات تدل على أن موسى قد خص بتكليم لم

¹ قطب، في ظلال القرآن، 1142/2

² انظر: السعدي، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص393

³ الأعراف:143

⁴ النساء:163

⁵ مريم:52

⁶ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 2313/4

يكن لكل نبي مرسل"¹، وكان ذلك بدون واسطة الملك جبريل-عليه السلام- بل هو سماع لكلام الله مباشرة².

ثانياً: إرسال هارون عليه السلام لمساندته

كان موسى-عليه السلام- قد دعا الله ان يعززه بمن يسنده في دعوته، واستجاب الله له، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾³ "أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، واستجاب الله دعاءه حين قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾"⁴، وتعدّ هذه الاستجابة من أكبر فضائل موسى-عليه السلام- فقد وهب له سبحانه "من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه"⁵.

المطلب الرابع: فضل الله على عيسى عليه السلام

لقد ورد اسم عيسى-عليه السلام- خمساً وعشرين مرة في القرآن الكريم، وقد أنعم الله تعالى عليه، وأكرمه بالكثير من الفضائل، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾⁶، ومن هذه النعم والفضائل:

أولاً: ولادته من غير أب:

منح الله تعالى عيسى عليه السلام الكثير من الفضائل، ومن ذلك معجزة من معجزاته عليه والسلام، أنه ولد من غير أب، وولادته كانت معجزة مرافقة له على مدار تاريخ حياته، قال

¹ رضا، تفسير المنار، 4/3

² أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 484/2

³ مريم: 53

⁴ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 237/5

⁵ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص496

⁶ الزخرف 59

تعالى: ﴿وَأَلَيَّ أَخْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾¹ فقد أمر الله جبريل فنفخ في جيب درعها، وجاء التعبير (من روحنا) حيث أضاف "الروح إليه تشريفاً لعيسى عليه السلام، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب"².

ثانياً: كلامه في المهد

أنطق الله تعالى عيسى عليه السلام حين كان رضيعاً في المهد، وجاءت هذه المعجزة حينها لتبرئة أمّه من اتهامها بالزنا، وبقيت هذه المعجزة دالة على نبوته عليه السلام حتى رفعه الله إليه، قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾³.

كما أن في تكليمه الناس في المهد معجزة من المعجزات التي ينتفع بها المؤمنون، ولإقامة الحجة على الناس والكفار خاصة، أنه عبد الله، مرسل، وقد منّ الله عليه بأن جعله من الصالحين⁴.

ثالثاً: جعله الله عز وجل وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين

بشرّ الله تعالى مريم عليها السلام، بأن ولدها عيسى سيكون له مقام رفيع ومكانة عالية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾⁵ أي ستكون له وجاهة ومكانة "في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه"⁶، وسيحظى -عليه السلام- بصفة المقربين منه سبحانه، وهل أعظم من قرب من الرحمن فضيلة، وهل أسمى من وجاهة تقرب إلى الله سبحانه.

¹ الأنبياء: 91

² البغوي، معالم التنزيل، 353/5

³ آل عمران: 46

⁴ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 131

⁵ آل عمران: 45

⁶ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 43/2

رابعاً: رفعه إلى السماء، ونزوله آخر الزمان

حاول اليهود قتل عيسى عليه السلام، والتخلص منه، فرفعه الله إليه روحاً وجسداً كما أثبتت الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ¹﴾

يعتقد اليهود اعتقاداً جازماً كما في الآيات، بأن الشخص الذي شبّه بعيسى عليه السلام، هو عيسى نفسه، ويظنون أنهم قتلوه، والمؤكد في القرآن والسنة، أنه لا يزال حياً، وسينزل في آخر الزمان، وسيكون نزوله عليه السلام من علامات الساعة².

المطلب الخامس: فضل الله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم

أولاً: تفضيله على الناس كافة

فاق نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم- فيما أوتي من فضل جميع الأنبياء والرسل-عليهم السلام- فهو من أولي العزم من الرسل، بل وأفضلهم كما ذكر سابقاً، وقد جمع الله فيه الصفات الحسنة التي كانت فيمن قبله، وميزه بمزايا وخصائص لم يحصل عليها نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل³.

ولقد بينت آيات القرآن الكريم الكثير من فضل الله تعالى على النبي-صلى الله عليه وسلم- كما وظهر ذلك جلياً في السنة النبوية، ووصف الله فضله على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه عظيم وكبير، بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً⁴﴾، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً⁵﴾، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع⁶".

¹ آل عمران: 53

² انظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 136/7

³ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 29/2

⁴ النساء: 113

⁵ الإسراء: 87

⁶ مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الخلائق، رقم: 6079، 59/7

ويميل ابن تيمية إلى أن محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل أولي العزم وأنه خاتم النبيين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء وخطيبهم، وقد آتاه الله المقام، وهو وصاحب لواء الحمد، ويجتمع الناس يوم القيامة على حوضه، كما ويشفع للناس، وهو وصاحب الوسيلة والفضيلة، بعثه الله بالقرآن أفضل الكتب السماوية وبأفضل الشرائع، وجعل أمته خير أمة، علماً بأنها آخر الأمم¹.

ولقد رفع الله مكانته بين الأنبياء، وأيده بمعجزات كثيرة منها: انشقاق القمر، وحنين الجذع، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلام البهائم له، ونبع الماء من بين أصابعه وأعظم معجزاته مكانة ومنزلة القرآن الكريم².

وقد أخذ القاضي عياض في تعداد مآثر الرسول وشمائله التي اختص بها، وذكر نحواً من سبعين من هذه الشمائل والصفات، منها "فضيلة النبوة، والرسالة، والخلة، والمحبة، والاصطفاء، والإسراء، والرؤية، والقرب، والدنو، والوحى، والشفاعة، والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود..."³ لكن أعظم الفضائل التي وهبها الله تعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم- هي معجزة القرآن.

ثانياً : بعض فضائل النبي صلى الله عليه وسلم

سيتم الحديث عن بعض فضائله صلى الله عليه وسلم، لا كلها، فضائله أكثر من أن يحتويها بحث، ومن أبرزها كما ورد في القرآن الكريم:

1- إرساله صلى الله عليه وسلم للناس كافة

كان من فضل الله على الرسول -صلى الله عليه وسلم- دون غيره من الأنبياء والرسل أن أرسله للناس كافة، فلم يختص الله تعالى برسالة الإسلام قوماً دون غيرهم، أو زمن معين، بل

¹ انظر: ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، 1985م، ص11

² انظر: الخازن، (741) علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، 1415، 187/1

³ عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى 56/1

هي رسالة عامة للبشرية، على مدى الأزمان والأماكن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾¹ وفي الحديث الذي رواه مسلم: " عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال « فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون »².

فإن كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة فقد أرسل الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم "إلى جميع الخلق من المكلفين" ³؛ "ليبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله" ⁴ وفي قوله تعالى: (كافة للناس) دفع للبس أن يكون -صلى الله عليه وسلم- مرسلاً إلى قومه خاصة، بل للناس أجمعين "العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود" ⁵.

ففي الأمر إعلان واضح وفيه "إعلام من الله تعالى بأنه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع العالم وهي إحدى خصائصه التي خص بها من بين سائر الأنبياء" ⁶ فهو مأمور بدعوة البشر جميعاً، وهو أنه مرسل للناس كافة، وفي ذلك رد على العيسوية⁷، من اليهود⁸.

¹ سبأ: 28

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المفاتيح باليد، رقم/ 7013، 36/9، ومسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة، بيروت حديث رقم 1195، 64/2

³ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 518/6

⁴ السعدي، تفسير السعدي، ص 680

⁵ الطبري، جامع البيان، 405/20

⁶ الثعالبي، (875) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط1/1418) 374/4

⁷ العيسوية: نسبوا إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني، وقيل: إن اسمه عوفيد الوهيم أي عابد الله كان في زمن المنصور وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد الحمار فاتبعه بشر كثير من اليهود، انظر: ابن حزم، الملل والنحل، 214/1

⁸ انظر: رشيد رضا (ت 1345 هـ)، محمد رشيد بن علي، تفسير القرآن الحكيم، دار الكتب المصرية، مصر، 1990،

2- خاتم الأنبياء والمرسلين

وصف الله تعالى نبيه بأنه خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾¹، وجاءت أحاديث عديدة تؤكد ذلك، منها: "عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"²، وفي الحديث إشارة إلى أن إرسال النبي - صلى الله عليه وسلم - كان بمثابة استكمال لبنيان لم يتم بعد، وأن هذا الاستكمال سيزيد من حسن هذا البناء، ويزيد في جماله وبهائه.

كما جاء عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يؤكد عدم وجود نبي بعده: فعن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)، وفي الحديث الذي يليه في الباب زيادة "وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد"³.

فالعاقب هو الذي ليس بعده نبي، يعني أنه جاء عقبهم أي بعدهم جميعاً فختموا به⁴ ومعنى خاتم النبيين هو: "الذي ختم النبوة فطبع عليها، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة"⁵، وهو ما يعني أيضاً: "انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقليين بعد تحليه عليه الصلاة والسلام بها"⁶، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾⁷، وفي

¹ الأحزاب: 40

² البخاري، (ت: 256هـ) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، 3535، دار الشعب، القاهرة، (ط1/1987) 226/4

³ المرجع السابق، كتاب بدء الوحي، باب قصة الحبش، 3532، 225/4، ومسلم، صحيح مسلم، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم - 6251، 89/7

⁴ أنظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، 106/15

⁵ الطبري، جامع البيان، 278/20

⁶ الألوسي، روح المعاني، 213/11

⁷ الأحزاب: 40

الآية دلالة على أنه لا يأتي نبي بعده وليس بعده بشرع جديد¹، فلن يُبعث نبي غيره إلى قيام الساعة، وذلك ستبقى شريعته لا تنسخ، وقد أرسل للناس كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾² عرب وعجم، وجن وإنس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾³، وقد اتّسمت هذه الشريعة بأنها كاملة، وشاملة لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة، فمن يزعم النبوة بعده كافر، لأن ذلك تكذيب لله والرسول حيث قال الله: ﴿وَاخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا خاتم النبيين" وقد أجمعت الأمة الإسلامية أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم⁴.

وفي ختم النبوة به -صلى الله عليه وسلم- معنى من الشفقة الزائدة على أمته، والحرص الأكيد على نصحتها، "وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد"⁵.

وبذلك تكون الرسالات قد تمت بإرساله للناس كافة، وعلى مدار التاريخ خيب الله كل من ادعى النبوة، وسيكون ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها⁶.

3- الشفاعة للناس يوم القيامة

ثبتت شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالقرآن الكريم، والسنة النبوية فهو يشفع "في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه"⁷.

¹ انظر: الشرييني، (ت 977هـ) محمد بن أحمد الشرييني، شمس الدين، تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، 215/3

² الفرقان: 1

³ سبأ: 28

⁴ انظر: الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة، (ط3/1/2002) 339

⁵ رشيد رضا، تفسير المنار، 185/10

⁶ انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 80/8

⁷ هراس، محمد خليل، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد (ط1/187) 287/1

وقد جعل الله لنبيه مقاماً محموداً يوم البعث قال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾¹ وهو ما فسر بالشفاعة يوم القيامة، حيث يقوم صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بمقام الشفاعة للناس، حتى يريحهم الله من شدة ذلك اليوم العظيم².

وقد ثبتت شفاعته النبي -صلى الله عليه وسلم- بالأحاديث الصحيحة عن -النبي صلى الله عليه وسلم- وقد تواترت الأحاديث في أنه يخرج "أقواماً من النار بعدما دخلوها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في أقوام دخلوا النار، وهذه الأحاديث حجة على الوعيدية³ الذين يقولون: من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها"⁴.

ومن هذه الأحاديث، حديث طويل رواه أنس بن مالك وهو: "إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني، فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمد به لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجدا فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله فيقول وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله"⁵.

وجاء عن ابن عمر، رضي الله عنهما أن "الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها، يقولون يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود"⁶.

¹ الإسراء: 79.

² انظر: الطبري، تفسير جامع البيان، 526/17.

³ الوعيدية؛ فهم القائلون بأن الله يجب عليه عقلا أن يعذب العاصي ؛ كما يجب عليه أن يثيب المطيع ، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له، أنظر: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية، 70/2.

⁴ ابن تيمية، مجموع الفتاوى 486/7.

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم: 7510،

179/9

⁶ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}. رقم: 4718، 108/6.

و"عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا كان يوم القيامة شفعت، فقلت: يا رب، أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة فيدخلون، ثم أقول أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء"، فقال أنس كأني أنظر إلى أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم"¹.

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يخرج من النار بالشفاعة كأنهم الثعالب". قلت وما الثعالب؟ قال الضغابيس"² وكان قد سقط فمه فقلت لعمر بن دينار يا أبا محمد سمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول "يخرج بالشفاعة من النار"، قال: نعم"³.

وتدل هذه الأحاديث وغيرها أن -صلى الله عليه وسلم- يشفع "قيمين دخل النار من أمته من أهل الكبائر فيخرجون بشفاعته، بعد ما احترقوا وصاروا فحما وحما فيدخلون الجنة بشفاعته"⁴.

4- القرآن الكريم

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم، المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة، وقد عجز العرب أن يأتوا بمثله، لما فيه من نظم بديع، مع فصاحتهم،

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

عَظِيمًا﴾⁵

¹ المرجع السابق، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم رقم 6509. ومسلم رقم 193، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة.

² والثعالب: قثاء صغار. والضغابيس: جمع ضغبوس نبت يخرج في أصول الشجر والإذخر لا ورق له وفيه، أنظر: ابن حجر، فتح الباري، 492/11

³ المرجع السابق 6558. كتاب الإيمان، باب أدنى الجنة منزلة فيها، ومسلم رقم 191، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة.

⁴ ابن قدامة المقدسي، (ت 620هـ) أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، لمعة الاعتقاد، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، السعودية، (ط 2/2000) 33/1

⁵ النساء: 113

وكان هذه القرآن سبب هداية خلق كثير من الناس، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن، أو آمن - عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة"¹.

لقد امتن على النبي صلى الله عليه وسلم بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة "وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم" من خبر الأولين والآخرين، وما كان وما هو كائن، فكل ذلك من فضل الله عليك².

وللنبي -صلى الله عليه وسلم- الكثير من المعجزات، لكن أعظمها "معجزة كتاب" باقٍ غض طري لم يتغير، ولم يتبدل منه شيء، بل كأنه منزل الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كل وقت على الوجه الذي أخبر به³.

ومن مزايا معجزته صلى الله عليه وسلم أن "معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة"⁴. ولذلك "ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن الذي.. لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله"⁵.

5- الإسراء والمعراج

ومن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، معجزة الإسراء إلى المسجد الأقصى ثم المعراج إلى السماء، ثم عودته في الليلة نفسها إلى مكة، حيث كانت رحلة الإسراء والمعراج بالجسد والروح معاً.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم، رقم: 7273،

113/9

² انظر: الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، 200/9

³ ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصادد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، (ط2/ 1975) 374/2

⁴ العتسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة،

بيروت، 1379، 6/9

⁵ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 461/4

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾¹، وقد ثبت المعراج في سورة النجم: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

لقد "دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه يقظة لا مناما ، كما دلت على ذلك أيضا الآيات التي ذكرنا"²، كما جاء في بعض الأحاديث: "عن جابر ابن عبد الله ، رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه"³.
و"عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ، رضي الله عنهما أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به بينما أنا في الحطيم ، وربما قال في الحجر - مضطجعا إذ أتاني آت فقدّ - قال وسمعتة يقول فشق - ما بين هذه إلى هذه - فقلت للجارود⁴ وهو إلى جنبي ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعتة يقول: من قصه إلى شعرته - فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أوتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض- فقال له الجارود هو البراق يا أبا حمزة، قال أنس: نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه - فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل قيل ، ومن معك قال محمد"⁵.

¹ الإسراء:1

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/3

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: حديث الإسراء، رقم: 3886، 67/5

⁴ الجارود: قال ابن حجر: لم أر من نسبته من الرواة ولعله بن أبي سيرة البصري صاحب أنس فقد اخرج له أبو داود من روايته عن أنس حديثا غير هذا، أنظر: ابن حجر، فتح الباري، 204/7

⁵ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: المعراج، رقم: 3887، 66/5

وبذلك، يكون قد ثبت أن الله سبحانه وتعالى أسرى بعبدہ محمد-صلى الله عليه وسلم- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث صلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل ولا معنى لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده؛ ووالا فلم أنكر المشركون حقيقة ذلك، ولو كان روحاً فقط لم ينكروه، وليس ثمة مشكلة قس أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل، كما قد أخبرنا الله أنه أسرى بعبدہ، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره¹.

¹ انظر: الطبري، جامع البيان، 344/17

الفصل الثالث

فضل الله على المؤمنين وعلى بني إسرائيل وعلى الناس كافة

المبحث الأول: فضل الله على المؤمنين

المبحث الثاني: فضل الله على بني إسرائيل

المبحث الثالث: فضل الله على الناس جميعاً

المبحث الأول: فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين

المطلب الأول: فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في الدنيا

تفضل الله سبحانه وتعالى على الناس كافة، وعلى عباده المؤمنين خاصة، بكثير من فضله الواسع؛ فالفضل كله بيده سبحانه، وكل ما يصيب الكون من خير وفضل فكله من عطائه وإحسانه الذي لا ينقطع سبحانه، ومن ورحمته التي لا تنتهي، وكان من فضل الله على المؤمنين خاصة أنه خصهم بميزات ليست عند باقي البشر، وقد وردت الكثير من الآيات في القرآن الكريم تفصل ذلك، وفيما يأتي عرض لهذه الآيات، حسب نوع التفضيل المذكور للمؤمنين:-

أولاً: فضل الله على المؤمنين بالإسلام والقرآن

إن أجل نعمة، وأعظم فضل تفضل به الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين هو دين الإسلام؛ حيث أدخل الناس إلى النور بعد إخراجهم من ظلمات الجهل والكفر، وينبغي على المؤمن أن يبقى حامداً لله، وشاكراً له على نعمة الإسلام التي لا تعادلها نعمة، فالحمد لله حمداً كثيراً على هذه المنّة، ومن أعظم نعم الله على المؤمنين، أن أنزل إليهم القرآن الكريم؛ الحبل المتين، والنور المبين، والكتاب العظيم، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾¹، وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾²، وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: "فضل الله: الإسلام، ورحمته: أن جعلكم من أهل القرآن"³، وهما خير للناس مما يحرصون على جمعه من حطام الدنيا؛ "فإن الإسلام الذي دعاكم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خير مما يجمعون"⁴، أي مما يجمعونه من متاع الحياة الدنيا؛ كالأموال، والأنعام؛ لأن فضل الله تعالى يجمع بين سعادة الدارين، كما حصل مع

¹ يونس:58

² البقرة:105

³ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد

العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض (ط1/2003) 180/4

⁴ الطبري، جامع البيان، 105/15

المسلمين؛ إذ كانت هداية الإسلام بفضل الله وبرحمته سببا لما ناله المسلمون في العصور الأولى من الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح، والعدل، والعلم، والعز الكبير¹.

والهداية للإسلام بيد الله سبحانه وتعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾²، وقد فسر الطبري معنى الفضل في هذه الآية بأنه الهداية للإيمان بالله والإسلام، التي يؤتيها الله عز وجل لمن أراد من خلقه³، وقد اختص الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بهذا الفضل العظيم، بأن هداهم للإسلام واختصهم بحمله⁴.

وشريعة الإسلام، هي من فضل الله الذي يختص به من يشاء، ومن رحمته بإنقاذ المؤمنين من الوقوع في الضلال، فنزول القرآن، هو فضل من الله ورحمة، ففيه أساس السرور والسعادة في الدارين⁵.

وقد أدرك الرعيل الأول من المؤمنين قيمة فضل الله عليهم بالهداية، ورأوا بها النعمة التي دونها كل النعم، فكانوا "يعدون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى. فأما المال، وأما الثراء، وأما النصر ذاته فهو تابع. لذلك كان النصر يأتيهم، وكان المال ينثال عليهم، وكان الثراء يطلبهم"⁶.

وقد حذر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من التفريط بهذا الفضل، ومن الارتداد عن نعمة الإسلام، وأخبر أن لديه قانوناً بالاستبدال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾⁷، فيستطيع سبحانه - أن يستبدل بمن يتولى عن إقامة شرعه، ونصرة دينه من هو خير من أولئك الذين لا يقومون بواجبهم تجاه نصرته هذا الدين⁸.

¹ انظر: رشيد رضا، تفسير المنار، 327/11

² آل عمران: 73

³ انظر: الطبري، جامع البيان 514/6

⁴ انظر: السعدي، تفسير السعدي، 969

⁵ انظر: أبو زهرة، (ت1394هـ) محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر

العربي، 3596/7

⁶ قطب، في ظلال القرآن، 1800/3

⁷ المائدة: 54

⁸ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 135/3

واختيار فئة من الناس لحمل دين الله والدعوة إليه هو منّة وفضل من الله عليهم، فمن يرتد يخسر هذا الفضل، والله غني عن الناس، وسيستبدل بهؤلاء الناس من هو أهل لهذا الفضل العظيم¹.

ثانياً: فضل الله على المؤمنين بأن زين الإيمان في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان

من أعظم ما تفضل به الله- سبحانه وتعالى- على عباده المؤمنين، أن حبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وجعل الكفر والفسوق من الأمور التي يبغضونها، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾²

والملاحظ أن الآيات حوت صيغ أفعال دالة على الإرادة الإلهية في إسباغ النعمة على المؤمنين مثل: (حبب)، (زينه)، (كره)، (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) بالله والرسول، فأنتم تطيعون رسول الله، فيقيكم الله من الإثم والهلاك، وزين الإيمان وحسنه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر بالله (والفسوق) يعني الكذب، (والعصيان) وهو ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه، وقوله (فضلاً من الله ونعمة) وهذه نعمة عدها فضلاً منه، وإحساناً ونعمة منه أنعمها عليكم (والله عليم حكيم)³.

والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع فيها من محبة الحق وإيثاره لما له من الشواهد، والأدلة على صحته، وتقبل قلوب المؤمنين وفطرتهم له وبما يفعله تعالى بكم من توفيق للطاعة، والبعد عن الكفر والذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب بما أودعه في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، ودلل على فساده، وعدم قبول الفطرة له فيكون مكروهاً لا يرضاه القلب، وكل هذا الخير من فضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم⁴.

¹ قطب، في ظلال القرآن، 917/2

² الحجرات: 8

³ انظر: الطبري، جامع البيان، 290/22

⁴ انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 800/1

ولولا هذه النعمة لاستنقل المؤمن القيام بالطاعات، لكنها نعمة الإيمان، وفضل الخشوع، كما قال تعالى عن الصلاة ﴿وَأَنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾¹.

وقد وصف الله تعالى هؤلاء "الذين أحبوا الإيمان وتزينت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان بأنهم الراشدون، أي هم المستقيمون على طريق الحق .. والتحبيب والتزيين والتكريه من نوع الفضل والنعمة"².

ورأى سيد قطب أن نعمة الإيمان أفضل من نعمة الوجود، وأن فضل الله باختيار فريق من عباده وتزيين الإيمان في قلوبهم، لا يجاريه أي شيء، حتى وجود الإنسان على هذه المعمورة، فهو أقل من نعمة الإيمان، ﴿بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾³ 4.

وإذا ما استيقن المؤمن بأن ما هو فيه من طاعة وتوفيق، إنما هو من فضل الله وكرمه "فشكر ربه على ذلك فزاده من فضله عملاً صالحاً ونعماً يفيضها عليه، وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه استغفر ربه وتاب، فزال عنه سبب الشر، فيكون دائماً شاكراً مستغفراً، فلا يزال الخير يتضاعف له والشر يندفع عنه"⁵، وتلك سنة ينبغي للمؤمن أن ينتبه لها ولا يغفل عنها.

ثالثاً: فضل الله على المؤمنين بأن جعل لهم فرقاناً، وكفر عنهم ذنوبهم، وغفر لهم

يعطي الله تعالى الإنسان النقي نوراً في قلبه، وبصيرة يهتدي بها في الطريق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَمَوَّا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁶.

لقد وعد الله تعالى الإنسان المؤمن الذي يتخذ التقوى منهجاً وطريقاً، أن يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقي إليه، وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل⁷.

¹ البقرة: 45

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 197/26

³ الحجرات: 17

⁴ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 3342/6

⁵ ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، 1978، 33/22

⁶ الأنفال: 29

⁷ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 406/3

والفرقان الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين يتمثل في البصيرة التي يتبع فيها الهدى، فيميز من خلالها بين الحق والباطل، ولا ينحرف إلى طريق الضلال، ولا بد للإنسان أن يتمتع بهذه البصيرة؛ ليستطيع التغلب على مشكلات الحياة¹.

وقد أورد الله وعده بأسلوب الشرط، فإذا اتقى المؤمنون الله تعالى بالطاعات واجتتاب المعاصي، وتركوا خيانة الله والرسول والأمانة، جعل لهم فرقانا، أي جعل لهم فضلا بين الحق والباطل وردّ عنهم السوء من أعدائهم المشركين، وكفرّ عنهم سيئاتهم، أي محى عنهم ما سلف من ذنوبهم بينهم وبينه².

ويستعرض البيضاوي الصور التي يتمثل فيها الفرقان فقال: "يجعل لكم فرقانا (هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، أو نصراً يفرق بين المحقّ والمبطل، بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجا من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين أو ظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم، من قولهم: بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح)، ويكفر عنكم سيئاتكم"³.

وتعدد الآية ثلاثة أشياء يمنحها الله تعالى لمن يتبعه، وهي أولاً: الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والنور والظلام، وثانياً: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وثالثاً: الأجر والثواب العظيمان⁴.

وكما أن الجزاء من جنس العمل، ف كذلك الاعتصام بالله يجازي عليه سبحانه بالرحمة والهداية إلى الصراط المستقيم، قال تعالى "﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾"⁵.

يرحم الله تعالى المؤمنين نتيجة إيمانهم، فيدخلهم جنته ويرفع درجاتهم ويضاعف لهم الثواب بفضلته وإحسانه، كما ويهديهم الطريق الواضح الذي لا انحراف فيه، ومن صفات

¹ انظر: الغزالي، (ت 1999م) محمد، مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، دار نهضة مصر، مصر، ط1، ص241

² انظر: الطبري، جامع البيان، 13/487

³ البيضاوي، (ت 685) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت 103/3

⁴ انظر: السعدي، تفسير السعدي 319

⁵ النساء: 175

المؤمنين في الدنيا الاستقامة على المنهج السليم، في العمل والاعتقاد، وهذا الذي يدخل الانسان الجنة¹.

وهؤلاء المؤمنون سوف تتألمهم رحمة الله التي فيها النجاة، وتوجب لهم الثواب والجنة، ويلحقهم من فضله ما لحق أهل الإيمان به والتصديق برسله ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، ويوفقهم لفضله الذي تفضل به عليهم، ويسددهم لسلوك منهج أهل طاعته، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم².

والمؤمنون الذين يجمعون بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، يتغمدهم الله بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم الثواب، ويدفع عنهم البلاء والمكروه وكذلك يوفقهم إلى معرفة الحق والعمل به³.

رابعاً: فضل الله على المؤمنين بتثبيتهم في الابتلاء، وإنجائهم من عدوهم، والعفو عنهم ابتلى الله عز وجل المؤمنين في غزوة أحد، وهزموا من قبل عدوهم، بعد أن عصى الرماة أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم عفا الله عنهم، ونجاهم سبحانه من عدوهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَمَّاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾⁴.

تتحدث هذه الآيات عن عفو الله عز وجل عن المخالفين لأوامر النبي - صلى الله عليه وسلم - والذين تركوا طاعته، حيث صفح عنهم، وأبعد عنهم المشركين فلم يستأصلوهم في المعركة⁵.

لقد ثبت الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين وردهم إلى ديارهم سالمين، بعد استجابتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - بعدما حل بهم في غزوة أحد، ولم يأبھوا بالتخويف الذي

¹ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 481/2

² انظر: الطبري، جامع البيان، 429/9

³ انظر: السعدي، تفسير السعدي 217

⁴ آل عمران: 152

⁵ انظر، الطبري، جامع البيان، 297/7

سمعوه، ولم يضعف ذلك من عزيمتهم، قال تعالى: ﴿فَاتَّقِلُّوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾¹.

جاء في سيرة ابن هشام: "الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ": أي الجراح، وهم المؤمنون الذين ساروا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغد من يوم أحد إلى حمراء الأسد على ما بهم من ألم الجراح، والناس الذين قالوا لهم ما قالوا .. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم، لما صرف الله عنهم من لقاء عدوهم².

إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الخروج معه مرة أخرى بعد غزوة أحد، وهم متخنون بالجراح، يشعرون بمرارة الهزيمة، بعد أن نجاهم من الموت، فدعاهم وحدهم، ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم ليقويهم ويكثر عددهم، فاستجابوا لدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكانت العاقبة كما هو منتظر من الله للمتوكلين عليه، ﴿فَاتَّقِلُّوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، فأصابوا النجاة - لم يمسسهم سوء - ونالوا رضوان الله. وعادوا بالنجاة والرضى³.

رجع المؤمنون من حمراء الأسد بنعمة العافية والشجاعة وزيادة الإيمان، لم يمسهم سوء ولم يصبهم قتل ولا جراح وأطاعوا الرسول بخروجهم وجراءتهم والله ذو فضل عظيم؛ حيث تفضل عليهم بالعافية، وحفظهم من كل سوء⁴.

وقد وصفهم الله بأنهم اتبعوا رضوانه فقال: "واتبعوا رضوان الله" يعني بذلك: أنهم أرضوا الله بفعلهم ذلك، واتباعهم رسوله إلى ما دعاهم إليه من اتباع أثر العدو⁵.

¹ آل عمران: 174

² ابن هشام (ت213هـ) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (ط2/ 1955)

121/2

³ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 519/1

⁴ انظر: القاسمي، محاسن التأويل، 461/2

⁵ الطبري، جامع البيان 414/7

خامساً: فضل الله على المؤمنين بإرسال الرسل وفي ذلك حفظ لهم من اتباع الشيطان

لقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين من اتباع الشيطان؛ فهو العدو اللدود للإنسان، فمنذ خلق الله تعالى آدم عليه والسلام، بدأت وسوسة الشيطان، حيث أخرج آدم وزوجته من الجنة، وقد بين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين فضله عليهم بأن حفظهم من اتباع الشيطان، قال تعالى: ﴿لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾¹، وهنا يخاطب سبحانه المؤمنين ويقول لهم: "ولولا إنعام الله عليكم، أيها المؤمنون، بفضله وتوفيقه ورحمته، فأنقذكم مما ابتلى به هؤلاء المنافقين، الذين يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أمرهم بأمر: "طاعة"، فإذا برزوا من عنده بيت طائفة منهم غير الذي يقول، لكنتم مثلهم، فاتبعتم الشيطان إلا قليلاً"².

وفي هذا التمييز لهم بالهداية والعصمة من الشيطان، إشعار لهم بقيمة هذا الفضل الرباني، الذي لولاه لاتبعوا الشيطان في أكثر أعمالهم بجعلها باطلة، وشريرة، إلا قليلاً منهم أوتوا من صفاء الفطرة وسلامتها ما يكفي لإيثارهم الحق والخير³.

وفي فضل الله هذا على المسلمين امتنان بأن أرشدهم إلى أنواع المصالح، وحذرهم من الشيطان ومكائده وأنصاه⁴، والله تعالى صاحب الفضل على عباده، سيفضح أمر الشيطان مع المنافقين، ويخرج المسلمين سالمين من كيد الشيطان واتباع المنافقين له، وهذا من فضل الله ورحمته على عباده المؤمنين⁵.

يقول الشنقيطي: "ولولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال محمد - صلى الله عليه وسلم - لاتبعتم الشيطان في الاستمرار، على ملة آبائكم من الكفر، وعبادة الأوثان إلا قليلاً كمن كان على ملة إبراهيم في الجاهلية؛ كزيد بن نفييل، وقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وأمثالهم"⁶.

¹ النساء: 83

² الطبري، جامع البيان، 574/8

³ انظر: رضا، تفسير المنار 245/5

⁴ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير 201/4

⁵ انظر: الشعراوي (ت: 1418هـ) محمد متولي الشعراوي، خواطر الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 4، 2484/1997

⁶ الشنقيطي، أضواء البيان، 315/5

والذين استثناهم الله من يتوصلون إلى طريق الحق من خلال النظر والتفكير، وما يصاحب ذلك من جهد وتعب¹.

سادساً: فضل الله على المؤمنين بتزكيته

امتنَّ الله - سبحانه وتعالى - على عباده بأن حفظهم من الانحراف نحو طرق الشر، وارتكاب المعاصي، والخوض في المنكرات، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾².

تميل نفس الإنسان إلى السوء، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلي وهذه الدواعي، ما زكا أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات³، ولأن فتنة الشيطان كبيرة، فمن الصعب أن ينجو منها الإنسان لولا إرشادات الدين للنجاة من هذه الفتنة العظيمة⁴.

وتزكية الأنفس وتطهيرها هما فضل من الله تعالى على عباده المؤمنين؛ فهو الخالق والموفق، وهو الذي يعلم ما تصلح به النفوس وتزكو، وكذلك تعتمد تزكية النفوس على النبي - صلى الله عليه وسلم - فهو المربي للمؤمنين، على ما تزكو به أنفسهم، ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله، وما لهم فيه من الأسوة الحسنة⁵.

فجعل القرآن من أخلاق الصفح والمغفرة، طريقاً لتزكية النفوس وتطهيرها، "فعلى ذكر التزكية والطهارة تجيء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين المؤمنين - كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب :-

¹ انظر: الماتريدي (ت: 333هـ)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1/2005) 447/7

² النور: 21

³ انظر: السعدي، تفسير السعدي 563/1

⁴ انظر: التحرير والتنوير 149/18

⁵ انظر: رشيد رضا، تفسير المنار 20/11

﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفَوْا وَلْيُصْفَحُوا. أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹ . . نزلت هذه الآية في أبي بكر - رضي الله عنه - بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة؛ وقد عرف أن مسطح بن أثاثه كان ممن خاضوا فيه؛ وهو قريبه؛ وهو من فقراء المهاجرين. وكان أبو بكر - رضي الله عنه - ينفق عليه؛ فآلى على نفسه لا ينفق مسطحاً بِنَافعة أبداً، نزلت هذه الآية تذكر أبا بكر ، وتذكر المؤمنين ، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم².

سابعاً: فضل الله بتشريع الأحكام الميسرة

جعل الله سبحانه وتعالى الشريعة منقذة للبشر، وسبيلاً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وليحيوا في ظلالها بسعادة غامرة في الدنيا، وبحياة السعادة والخلود في الجنة. وقد تحدثت بعض الآيات في سورة النور عن عدة أحكام شرعها الله سبحانه، وهي عقوبة الزاني، وعقوبة قذف المحصنات، وبينت أحكام اللعان، ثم اختتمت الآيات بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾³.

والآيات هنا تتحدث عن فضل الله تعالى على المؤمنين بتشريع الأحكام لهم، ومعنى الآية: ولولا فضل الله عليكم، أن حفظكم من أذى بعضكم بما شرعه من أحكام، وخفف عنكم الأحكام والزواج حين الاضطرار، ومثال ذلك حكم اللعان الذي تنتجه الغيرة⁴. وتبين الآيات القرآنية أنه "ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عواد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفصح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بها عاجلاً؛ رحمة منه بكم، وتفضلاً عليكم، فاشكروا نعمه وانتهوا عن التقدم عما عنه نهاكم من معاصيه"⁵.

¹ النور: 22

² قطب، في ظلال القرآن 2504/4

³ النور: 21

⁴ انظر: التحرير والتنوير 135/18

⁵ الطبري، جامع البيان، 115/19

وتأتي هذه الآية في سياق من الله على المؤمنين وتذكيره لهم، بلطفه ورأفته بهم، وإيجاده المخرج لهم من الضيق، ولولا فضله سبحانه لشعرتم بالحرَج، والمشقة، ولشق عليكم كثير من أموركم¹.

ومن فضله الله، ثبوت حكم اللعان، بسبب الحاجة إليه، وحتى يعلم الإنسان كم تعتبر جريمة الزنا من الجرائم الفظيعة، وكذلك لبيان فظاعة قذف المحصنات به، ولبيان أن باب التوبة مفتوح من هذه الذنوب الكبيرة وغيرها².

وكان الناس يستقبلون مثل هذه الأحكام بالهفة والسرور، لما فيها من فوائد عظيمة وحكم جليلة³.

ثامناً: فضل الله على المؤمنين برحمتهم وبأن جعل لهم نوراً رغباً عن اليهود

يترتب على تقوى الله عزوجل الكثير من الثمرات في الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما ذكرته الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لَّا يَلْعَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁴.

لقد كان أهل الكتاب يعتقدون أن الله فضلهم على الخلق، وهم كذلك كانوا على علم أن الله تعالى قد أتى أمة محمد من الفضل ما لم يؤتهم، لكنهم حسدوا المؤمنين على هذا الفضل⁵. والفضل الإلهي على المؤمنين يشمل من آمن بالله واتقى وآمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأجل أن يعلم أهل الكتاب بأنهم لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم -

¹ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 14/6

² انظر: السعدي، تفسير السعدي، 562/1

³ انظر: قطب، في ظلال القرآن 2493/4

⁴ الحديد: 29

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان، 2013/23

المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغما عن أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾¹.
ومعنى ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ .. أي يعطكم نصيبين من رحمته، وفي هذا
التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض .. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾. وهي هبة يودعها الله
القلوب التي تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله فتعرف الطريق بلا انحراف، ﴿وَيَغْفِرْ
لَكُمْ﴾. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... فالإنسان يقصر حتى لو عرف الطريق. وهو يحتاج إلى المغفرة
فتدركه رحمة الله .. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ . لتتالوا كفلين من
رحمة الله. ويكون لكم ذلك النور تمشون به. وتدرككم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير
.. ﴿لَنَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَيُّدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.
كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباءؤه : ﴿وَقَالُوا
كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ .. ﴿وَقَالُوا: لَنَ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ .. وحتى يعلم أهل
الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، غير
مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾².

تاسعاً: تفضيل المجاهدين من المؤمنين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين

يعدّ الجهاد في سبيل الله تعالى، من أفضل ما يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى،
وقد رفع الله سبحانه وتعالى درجات المجاهدين ومكانتهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم بذلوا أرواحهم
في سبيل الله، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾³.
ومعنى الآية: "لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم
يقاثل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاثر
والقعود عنه من غير عذر"⁴.

¹ انظر: السعدي، تفسير السعدي 843/1

² انظر: قطب، في ظلال القرآن 3496/6

³ النساء: 65

⁴ السعدي، تفسير السعدي، 195/1

وقد فضل الله المجاهدين بالأموال والأنفس على الذين قعدوا عن الجهاد بسبب عجزهم؛ كالأعمى والأعرج وغيرهما من أصحاب الأعذار، فالله تعالى رفع درجة المجاهدين أكثر منهم، وهي درجة العمل الذي يترتب عليه دفع شر الأعداء عن الملة والأمة والبلاد (وكلا وعد الله الحسن)، أي: ووعد الله المثوبة للمجاهدين والقاعدين¹.

عاشراً: فضل الله على المؤمنين بأن تكفل برزقهم

لقد تكفل الله للمؤمنين بالرزق تكفلاً خاصاً، غير التكفل الذي جاء في سياق عام، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾²، فقد جاءت هذه الآيات في سياق طمأننة المؤمنين، بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وفي سياق حثهم على تنفيذ أوامر الله، ومواجهة المشركين، من دون خوف من انحسار الأرزاق، وانتشار الفقر، والمجالات التي تكفل الله تعالى بها برزق المؤمنين ما يأتي:

أولاً: رزقهم بعد الخوف من انقطاع المال

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾³.

ونزلت هذه الآية؛ لأن المؤمنين كانوا يخشون أن يتضرروا وتتقطع تجارتهم إذا لم يدخل المشركون إلى البيت الحرام، فجاءت الآيات تطمئنهم أنهم لن يتعرضوا للحاجة والفقر، وأنه سبحانه سيعوضهم عن تضرر التجارة الناتجة عن انقطاع المشركين⁴.

وقد أنجز الله وعده للمؤمنين، وآتاهم من فضله، ورزقهم بعد أن صبروا واثقين بوعد الله وجوده، فغلبت عقيدة التوكل هواجس الخوف من انقطاع الرزق لديهم، فمن يترك شيئاً لأجل الله، فإن الله سيعوضه من فضله خيراً فهو أكرم الأكرمين⁵.

¹ انظر: رضا، تفسير المنار 286/5

² هود: 6

³ التوبة: 28

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان، 14/190

⁵ انظر: السعدي، تفسير السعدي، 1/333

وكل ذلك ليبتلي الله المؤمنين، ولیمحص ما في قلوبهم، فالله¹، "يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة! وبعد ذلك، فالله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة"².
وتتحدث الآية عن المستقبل - لا الحاضر - فهي وعد للمستقبل لا الحاضر، وهذا لا يخطر ببال أحدهم، والأمر متعلق بشرط القيام بما أمر الله به، فسيغنيهم الله، كما وعدهم، وكان قد نصرهم من قبل³.

ثانياً: رزقهم الزواج بالحلال بعد الفقر

الزواج فيه عفة للإنسان المسلم، وبناء الأسرة من أهم الركائز التي يقوم عليها المجتمع المسلم، وقد حث الإسلام على الزواج، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾⁴.

وفي الآيات أمر للمؤمنين بتزويج غير المتزوجين، من الأحرار رجالاً ونساءً، والصالحين من العبيد والمماليك، والأيامي اللواتي لا أزواج لهن، فإن يكن هؤلاء الذين تُتَكَوْنُهُمْ من أيامي رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم أهل فاقة وفقر، فإن الله يغنيهم من فضله، فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم⁵.

لقد وعد الله تعالى المؤمنين المتزوجين وطالبي الزواج والعفة بالغنى للمتزوجين⁶، "والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه [وإياها] ما فيه كفاية له ولها"⁷.

وفي الآية طمأنة على المستقبل وحث على الزواج، فلا تتمنعوا عنه لظنكم وتوهمكم أنه يسبب الفقر، بسبب الإعالة ومستحقات الزواج المادية، فالله واسع الفضل يعد المؤمنين بالغنى فيعطي من يستحق حسب علمه⁸.

¹ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 103/8

² قطب، في ظلال القرآن، 1618/3

³ انظر: رضا، تفسير المنار، 240/10

⁴ النور: 32

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان، 165/19

⁶ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 241/12

⁷ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 51/6

⁸ انظر: السعدي، تفسير السعدي 567

والله تعالى ييسر للحر في الجانب المادي، ويوسع على العبد، إن كان عبدا فلا عذر للولي ولا للمولى أن يرد خطبته في هذه الأحوال، وإغناء الله تعالى إياهم توفيق ما يتعاطونه من أسباب الرزق التي اعتادوها مما يرتبط به سعيهم الخاص بعد الأخذ بالأسباب العامة أو الخاصة التي تفيد سعيهم، والمعنى: أن الله تكفل لهم أن يكفيهم ما يزيده التزوج من نفقاتهم¹.
يقول الرازي: "والمعنى لا تنتظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها، ففي فضل الله ما يغنيهم، والمال غادٍ ورائح، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح"².

ثالثاً: شرع لهم التجارة لتحقيق الرزق

جاء في كتاب الله عدد من الآيات تحت المسلمين على طلب الرزق والسعي لتحقيق ذلك بالوسائل المشروعة، وفي ذلك ابتغاء لفضل الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾³.
وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا يَصْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁴، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾⁵.

وتحدثت هذه الآيات عن ابتغاء فضل الله، "وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة"⁶ وهو من نعم الله، "وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم بفضله الذي تفضل عليكم"⁷، يقال: "ابتغيت فضلاً من الله - ومن فضل الله - أبتغيه ابتغاءً -، إذا طلبته والتمسته"⁸.

¹ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 172/18

² الرازي، مفاتيح الغيب، 186/23

³ الجمعة: 10

⁴ المزمّل: 20

⁵ البقرة: 198

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 413/2

⁷ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن 305/18

⁸ المرجع السابق، 163/4

وذكرت أكثر كتب التفسير أن الفضل في هذه الآيات هو المال الحلال المكتسب من التجارة أو غيرها¹، وقد سَمَّى الله سبحانه وتعالى المال فضلاً، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾² ومعنى الضرب في الأرض في قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁴ السفر من أجل الربح والتجارة والبحث عن الرزق⁵.

وهكذا نجد القرآن يحث أتباعه على تحقيق القوة الاقتصادية، والأخذ بأسباب الاستثمار والتجارة، حتى أن طلب الرزق، والتكسب المادي في الحج لا حرج فيها، إذا لم يشوش على متطلبات الحج، وما يجنيه الإنسان من مكاسب وأرباح، يعود لفضل الله لا لجهود الإنسان⁶.

المطلب الثاني: فضل الله على المؤمنين في الآخرة

تفضل الله تعالى على المؤمنين العاملين في الدنيا، والمطيعين لأوامره والمجتنبين لما نهى عنه سبحانه، بأن جعل لهم الجنة، يدخلونها بفضلهم ورحمته، قال تعالى: ﴿وَلَا آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾⁷.

واتخذ فضل الله على المؤمن بالآخرة حالات متعددة وصور متنوعة أهمها:

أولاً: فضل الله على المؤمنين بالعطاء الواسع المقيم في الجنة

يعمل الإنسان جاهداً لتطبيق أوامر الله، واجتناب نواهيه، وكل ذلك طمعاً، وحباً، في جنة الله سبحانه وتعالى التي يدخلها المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ⁸.

¹ انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، 618/1

² البقرة: 198

³ السرخسي، (ت 483هـ) محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة، المبسوط، : دار المعرفة، بيروت، 1993م،

253/30

⁴ المزمّل: 20

⁵ انظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 89/1

⁶ انظر: السعدي، تفسير السعدي 92/1

⁷ الاسراء: 21

⁸ فاطر: 35

يخبر الله سبحانه عن الذين أدخلوا الجنة، أنهم يقيمون فيها إقامة دائمة، فدار المقامة هي التي لا حول عنها ولا انتقال منها¹.

ويرى الإنسان المؤمن بعد دخوله الجنة، والاستمتاع بالنعيم المقيم أن ما عمله لا يساوي كل هذا النعيم المقيم الذي يعيشه²، وفي سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾³، واستخدام اسم الإشارة للبعيد (ذلك)، يدل على المكانة السامية لهذا الفضل، كما أن استخدام ضمير الفصل (هو) يؤكد على قيمة هذا الفضل، ثم تأتي الصفة (الكبير) لتكمل الإشارات على ضخامة هذه الفضل وسعته، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم عند ربهم في الآخرة من النعيم والعطاء ما تشتهيهِ الأنفس وتلذه العيون، وهذا هو الفوز الكبير، لقد أعطاهم الله من هذا النعيم، وهذه الكرامة في الآخرة: وهذا الفضل الكبير من الله عليهم، يفضل كل نعيم وكرامة في الدنيا من بعض أهلها على بعض⁴.

والله سبحانه بفضلله "لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل ..فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل"⁵.
ففي الجنات، يحصل ما يريدون، ومهما يطلبون، من النعيم المقيم، ولا يوجد فوز أعظم من رضا الله والتنعيم بقربه⁶.

وقد حث القرآن المؤمنين على المسابقة إلى هذا الفضل العظيم قائلاً: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁷.

¹ انظر: الطبري، جامع البيان، 474/20

² انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 552/6

³ الشورى: 22

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان، 523/21

⁵ قطب، في ظلال القرآن، 3153/5

⁶ انظر: السعدي، تفسير السعدي، 757/1

⁷ الحديد: 21

فالجنة "فضلُ الله تفضل به على المؤمنين، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه، وهو ذو الفضل العظيم عليهم، بما بسط لهم من الرزق في الدنيا، ووهب لهم من النعم، وعرفهم موضع الشكر، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ما وصف أنه أعدّه لهم"¹.

ثانياً: فضل الله على المؤمنين بالصحبة الكريمة مع الأنبياء والصديقين والشهداء

يبشر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الصادقين، بأنهم سيتنعمون بالرفقة الصالحة في الجنة، وهذه الدرجة العالية الرفيعة في الجنة لا بد وأن من يبلغها يكون من المؤمنين الصالحين المجاهدين. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا².

ومعنى ذلك أن من اتبع أوامر الله والرسول وترك المنهيات، فإن الله عز وجل يدخله الجنة، ويزيد من ثوابه بأن يجعله مرافقاً للأنبياء ثم الصديقين ثم الشهداء، وعموم المؤمنين الذين صلحت سرائرهم وعلايتهم³.

وهذه اللمسة تستثير العواطف، وفيها إثارة للتطلع إلى مقام كريم وصحبة كريمة، في جوار الله الكريم .. وهذه الصحبة .. إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها .. إنما هو الفضل الواسع الغامر الفاضل العميم⁴.

وتعقيبه تعالى: (ذلك الفضل من الله) يدل على أن "عطاء الله إياهم وفضله عليهم، لا باستيجابهم ذلك لسابقة سبقت لهم، فإن قال قائل: أو ليس بالطاعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟ قيل له: إنهم لم يطيعوه في الدنيا إلا بفضله الذي تفضل به عليهم، فهداهم به لطاعته، فكل ذلك فضل منه تعالى ذكره"⁵.

¹ الطبري، جامع البيان، 194/23

² النساء: 70

³ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 353/2

⁴ انظر: قطب، الظلال، 699/2

⁵ الطبري، جامع البيان، 530/8

ثالثاً: فضل الله على المؤمنين بأن جعل مكانة شهدائهم عالية

الشهادة من المراتب العليا، التي لا ينالها إلا الصادقون من المؤمنين، حيث يضحى الإنسان بنفسه وروحه لإعلاء كلمة الله، ويريق المؤمن دمه ثمناً لدين الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُنْزِقُونَ﴾ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ¹.

والشهداء في الجنة "يستبشرون"، ويفرحون بنعمة من الله، يعني بما حباهم به تعالى ذكره من عظيم كرامته عند ورودهم عليه "وفضل" يقول: وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب على ما سلف منهم من طاعة الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وجهاد أعدائه "وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين"²

جمع الله تعالى للمؤمنين بين نعيم البدن، ونعيم الروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا يستبشرون، أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم وأنهم سينالون نعيم إخوانهم الذين سبقوهم نفسه، ويهنئ بعضهم بعضاً، بأعظم مهناً به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه³.

رابعاً: فضل الله على المؤمنين بالخلود الدائم في الجنة

من أعظم النعم التي يستشعرها المؤمنون في الجنة نعمة الخلود، حيث النعيم الدائم، والبقاء الدائم من دون مسّ بحزن ولا تعب، وقد عبّروا عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ⁴.

تحكي الآية عن إحساس المؤمنين بالشعور الغامر بفضل الله عليهم في دار المقامة التي لا تحول وعنها ولا انتقال⁵، {الَّذِي أَحَلَّنَا} أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر

¹ ال عمران: 171

² الطبري، جامع البيان 395/7

³ انظر: السعدي، تفسير السعدي 156

⁴ فاطر: 35

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان، 474/20

واعتبار. { دَارَ الْمُقَامَةِ } أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال { مِنْ فَضْلِهِ } علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولاً فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه¹.

"ومن فضل الله أن جعل لهم الجنة جزاء على الأعمال الصالحة؛ لأنه لو شاء لما جعل للصالحات عطاء، ولكان جزاؤها مجرد السلامة من العقاب، وكان أمر من لم يستحق الخلود في النار كفافاً، أي لا عقاب ولا ثواب فيبقى كالسوائم"².

¹ السعدي، تفسير السعدي 689/1

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 168/22

المبحث الثاني: فضل الله على بني إسرائيل

تتحدث الكثير من آيات القرآن عن العديد من أصناف النعم والفضل التي منحها الله عز وجل لبني إسرائيل، ومن هذه النعم، تفضيلهم على العالمين، وإنجائهم من عدوهم، وإرسال الكثير من الأنبياء فيهم، كما وذكرت الكثير من النعم الأخرى، التي تستحق من الإنسان الشكر، والأصل أن فضل الله على الناس يدعوهم للاستقامة¹.

لقد أخبر الله عز وجل الناس، بجزء من النعم الغامرة التي أنعم بها على بني إسرائيل، وتبين الآيات القرآنية أن الله تعالى أعطاهم ما لم يعط أحداً من البشر، وقد ظهر ذلك جلياً في التاريخ، ولكن موقفهم من نعم الله تعالى كان الجحود لكل هذا الفضل الإلهي².

وقد تحدث القرآن الكريم بالتفصيل، عن "المنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة، وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها وسرى نفعها من الأصول إلى الفروع، فجعل يذكرهم بأيام الله فيهم؛ يوم أنجاهم من آل فرعون، ويوم أنجاهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه، ويوم واعدتهم بإنزال الكتاب عليهم، ويوم حقق وعده بإنزاله، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله، ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظائم عليه. وإنها لنعم جليلة "سابقة للذنوب ولاحقة" تلين بذكرها القلوب، وتحرك الهمم لشكر المنعم وامتنال أمره"³.

وصنّف الباحث أشكال فضل الله على بني إسرائيل، كما وردت في آيات القرآن الكريم

على النحو الآتي:

¹ انظر: طنطاوي، (ت2010) محمد سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، مصر (ط2/2000)، ص231

² انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، الشخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم تاريخ وسمات ومصير، دار القلم، دمشق، (ط1/1998) ص111

³ دراز (ت1958) محمد بن عبد الله، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار القلم للنشر والتوزيع، سوريا، ط2005، ص222

المطلب الأول: تفضيلهم على العالمين

وردت الكثير من الآيات تتحدث عن تفضيل بني إسرائيل على العالمين، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹، وقد تكررت الآية نفسها في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾²، وفي سورة الأعراف، قال موسى مخاطباً قومه: (قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)³، وفي سورة الجاثية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَمَرَّرْنَا هُم مِّنَ الطِّبْيَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁴.

والتفضيل المقصود هو التفضيل على أهل ذاك الزمان، الزمان الذي كانوا فيه على طريق الحق، وهو تفضيل على الذين كانوا يعيشون مع بني إسرائيل⁵، و"ذكر تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله، فإن بني إسرائيل كغيرهم من البشر، والتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل؛ لأن الذي يرى نفسه رذلاً خسيساً، لا يبالي ما يفعل، ومن يرى نفسه مفضلاً مكرماً، فإنه يترفع عن الدنيا والخسائس التي تدنس شرفه وتذهب بفضله"⁶.

واجتهد بعض الباحثين في تحديد سبب تفضيلهم المؤقت وبأن ذلك يعود للدين والإيمان، حيث كانوا مؤمنين لا يعبدون الأصنام، في محيط يعبد الناس فيه الأصنام، والله يفضل المؤمن التقي على الكافر⁷، وأن تفضيلهم هذا لم يكن من باب المحاباة، بل هي من عدله سبحانه وتعالى، فلعل أن أهل ذاك الزمن كانوا أقل منهم معرفة، وقدرة على حمل الرسالة، وقد ظنّ بنو إسرائيل أن تفضيل الله حق مكتسب لهم بسبب جنسهم، فهو يقترب بهم مهما فعلوا، إلى أن وصل بهم الحال إلى التفريط والتكاسل والانحراف⁸، فاليهود بعد تفضيلهم الذي ذكرته الآيات صاروا

¹ البقرة: 47

² البقرة: 122

³ الأعراف: 140

⁴ الجاثية: 16

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان، 24/1

⁶ رشيد رضا، تفسير المنار، 252/1

⁷ انظر، الخالدي، صلاح، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، ص112

⁸ انظر: الغزالي، محمد، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار نهضة مصر، مصر، ط1، ص12

يعانون من مشكلة نفسية على مدار التاريخ، فهم يعتقدون أنهم أفضل البشر؛ لاتصالهم بإبراهيم عليه السلام، ويعتبرون ذلك كافياً لتفضيلهم على الناس، وأن هذا التفضيل خالدٌ على مدار الزمن، لاتصالهم بهذا النسب، مهما أفسدوا وطغوا¹.

وبالفعل صارت هذه المشكلة تكمن في جبلتهم المنحرفة، فهم يرون أنفسهم شعب الله المختار؛ نتيجة لتفضيلهم على غيرهم في فترة من الزمن، ويرون أن البشر بمثابة عبيد وخدم لهم، وقد جحدوا وكفروا وبطشوا².

وهكذا فقد ظنوا "أن تفضيلهم لجنسهم، واعتدوا حدود الله، واستمروا العصيان والعدوان!!". فكانت عقابهم لعنة خالدة صرفت النبوات عنهم أبداً، وبعثرتهم في آفاق الأرض، أمماً محقورة منكودة، لا حرمة لها ولا لواء³.

ولما كان ينبغي لهذا الفضل الإلهي المميز أن يقابل بالشكر والطاعة، وبالمزيد من الإخلاص لله تعالى، فقد كانت العقوبة النازلة على بني إسرائيل شديدة مزللة؛ فقد كفروا بهذا الفضل وتكبروا له، ولم يشكروه، وتمادوا في ظلمهم، وبغيهم، وفسادهم، فنالوا جزاءهم، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا غَضَبَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾⁴.

لقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وغضب الله عليهم، ولعنهم؛ لأنهم "جحدوا فضل الله عليهم، وجحدوا أنبياءهم، وجحدوا كل فضل قدمه إليهم أحد من البشر.. وقابلوا كل ذلك بإنكار الجميل أو الطمع والجشع والحسد وقساوة القلب، كرهتهم كل الأمم لخصالهم تلك، فانطوا على أنفسهم، يملأ نفوسهم الحقد الدفين على الأمم كلها، يريدون أن يقضوا على كل شعوب الأرض؛ ليبقوا هم وحدهم، أو يريدون أن يستعبدوا الأمم كلها ويسخروها لمصالحهم"⁵.

¹ انظر: حبنكة، (ت 2004 م) عبد الرحمن الميداني، مكاييد يهودية عبر التاريخ، دار القلم، دمشق، (ط2/1978) ص11

² انظر: قطب، (ت 2014 م) محمد الشاذلي، مذاهب فكرية معاصرة، مصر، دار الشروق، (ط1/1983) ص80

³ الغزالي، محمد، الخديعة حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، دار نهضة مصر، مصر، ط1، 157

⁴ البقرة: 61

⁵ انظر: جرار، سياحة الفكر، ص127

⁶ قطب، محمد، مذاهب فكرية معاصرة، ص80

المطلب الثاني: مقارنة بين " تفضيل " بني إسرائيل، و " خيرية " أمة محمد صلى الله عليه وسلم

بين الله عز وجل في أربعة مواضع في القرآن الكريم أنه فضل بني إسرائيل على العالمين، كما ذكر آنفاً، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹، وقد وردت الآية نفسها في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾²، وفي سورة الأعراف، قال موسى مخاطباً قومه: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾³، وفي سورة الجاثية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّرْنَا هُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁴.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، أن أمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي خير الأمم، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾⁵، وفي سورة الحج قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾⁶، وفي سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾⁷.

وفي الحديث عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: "إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله"⁸.

¹ البقرة: 47

² البقرة: 122

³ الأعراف: 140

⁴ الجاثية: 16

⁵ آل عمران: 110

⁶ الحج: 78

⁷ البقرة: 143

⁸ الترمذي، (ت: 279هـ) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق:

أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر (ط2/1975) أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم الحديث 3001، 336/5، وقال عنه الترمذي "حديث حسن"، ح والنسائي (ت303هـ) أبو عبد

الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، سنن النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة

الرسالة، بيروت (ط1/2001) رقم الحديث 11367 كتاب التفسير، سورة يس 230/10

والراجح أن أمة النبي صلى الله عليه وسلم، أفضل من بني إسرائيل، ولا يوجد تعارض في الآيات المذكورة آنفاً، فهم فضلوا حين لم تكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم موجودة بعد، فبعد أن وجدت أمته صلى الله عليه وسلم، صرح القرآن بأنها خير الأمم، واليهود وقت نزول القرآن كانوا كفّاراً، وآيات تفضيلهم كانت تذكيراً لهم بزمان سابق¹.

وإن آيات القرآن دالة "دلالة واضحة على أن عالم كل زمان، غير عالم الزمان الذي كان قبله، وعالم الزمان الذي بعده، إذ إن الله -جلّ ثناؤه- قد فضّل أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم الخالية"².

لقد اختص الله سبحانه وتعالى أمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بخصائص وكرامات عظيمة؛ فقد جعلها خير الأمم، واصطفاها على الخلق؛ لتكون الأمة الوسط الشاهدة على جميع الأمم³.

فلا شك أن بني إسرائيل كانوا أفضل العالمين حينما كانوا صالحين، لكنهم لم يقابلوا هذا الفضل سوى بالمزيد من الانحراف والضلال، فكان نصيبهم أن لعنوا وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وأصبحوا أذل الناس، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ إِلَّا يَحِطُّ مِنَ اللَّهِ وَحِيلَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾⁴، فأيات التفضيل تتحدث عن وقت سابق كانوا فيه صالحين⁵.

بل وحاقت بهم عقوبات لم تذكر في القرآن بحق غيرهم؛ بأن سخط الله عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾⁶، وقال سبحانه: ﴿فَقَتَلْنَاهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾⁷.

¹ انظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 197/7

² الطبري، جامع البيان، 151/1

³ انظر: التميمي، محمد بن خليفة بن علي، حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة، أضواء السلف، الرياض، السعودية (ط1/1997) 41/2

⁴ آل عمران: 112

⁵ انظر: ابن عثيمين (ت: 1421هـ)، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة، دار ابن الجوزي، السعودية (ط1: 1423) 171/1

⁶ المائدة: 60

⁷ البقرة: 65

فاختيار أمة محمد وجعلها أفضل الأمم ليس تمييزاً عنصرياً، أو جغرافياً، بل كان لمميزات فكرية تنفع البشرية جمعاء، وهذا ما فقدته أصحاب الرسالة السابقون، فقد ظنوا أنفسهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فعزلوا عن القيادة العامة للناس، قال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾¹، فمصير الأمم يحدده ما يسود أكثرها من سوء وفساد - حتى ولو كان فيهم القلة الصالحة- ومصيرها كذلك مرتبط بالإيمان، والحرص عليه².

وثمة فرق جوهري بين الخيرية والفضل، فالخيرية أعلى مرتبة من الفضل؛ إذ هي زيادة في الخير، بينما التفضيل يختص بميزة دون غيرها، فقد يكون فلان أفضل من فلان، لكن ليس بالضرورة خيراً منه، "فإذا كانت الأفضلية تتعلق بزيادة في المال، أو القوة، أو الجمال، أو العقل...، فإنّ الخيرية تتعلق بزيادة الخير... من هنا كان الحكم الربّاني الذي صدر في حق مجتمع الصحابة، رضوان الله عليهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ولم يقل سبحانه وتعالى: "كنتم أفضل أمة.."، لأنّ الفضل يحتمل وجوهاً كثيرة، ولا يستلزم الخيرية إلا إذا كان فضلاً وتقوى"³.

وفي قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يخاطب الله المؤمنين: إنكم أكثر الأمم نفعاً للناس، فالأفضلية ارتبطت بمقدار النفع المتأتي من هذه الأمة وسلوكها في الأمر بالمعروف، فالخير من الخيرية وليس من الأفضلية، بل إن التفضيل يتحقق بمقدار الخير الناتج عن هذه الأمة.

المطلب الثالث : إنجاؤهم من عدوهم

لما تمادى فرعون في ظلمه وجبروته، أمر الله عزّ وجلّ نبيه موسى أن يخرج من مصر بصحبة بني إسرائيل، فعلم فرعون بذلك، فحاول منعهم ولحق بهم بجنوده، فنجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل، وأغرق فرعون وجنوده، واستمرت سنة الله في إهلاك الظالمين بعد البطش والتكيل والظلم الذي مارسوه مع بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ

¹ آل عمران: 110

² انظر: الغزالي، محمد حصاد الغرور، دار نهضة مصر، مصر، ط1، ص12

³ جرار، بسام، سياحة الفكر، فلسطين، مركز نون للدراسات، (ط1/2013) 126

مَنْ آلَ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ¹.

فأنعم عليه سبحانه بالخلّاص من فرعون وجنوده، بعد أن كانوا يعذبونهم أشدّ العذاب، فيقتلون الأولاد الذكور خشية نموهم، ولا يقتلون النساء، فكانوا إما قتلوا أو يتعرضون للإذلال بالأعمال الشاقة، فأنعم الله تعالى عليهم بالنجاة من فرعون وإغراقه، وإهلاك فرعون وجنوده وهذا فيه إحسان وفضل من الله تعالى يستوجب الشكر والطاعة، إلا أنهم عبدوا العجل وهم يعلمون بما اقترفوه من ذنب عظيم².

فهؤلاء الذين نجوا من فرعون كان ينبغي عليهم أخذ العبرة والاستفادة من هذا الحدث، فهم شاهدوا معجزة، وآية من آياته سبحانه وتعالى، وفي ذلك دليل على وحدانيته سبحانه، إلا أنهم بحثوا عن واسطة من المخلوقات الضعيفة بينهم وبينه سبحانه³.

يقول محمد سيد طنطاوي: "اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشقّ العذاب وأصعبه، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم، وامتهان لكرامتكم، حيث كانوا يزهدون أرواح ذكوركم، ويستبقون نفوس نسائكم، وفي ذلكم العذاب، وفي النجاة منه امتحان لكم بالسراء لتشكروا، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الإذلال في الدنيا، والعذاب في الآخرة"⁴.

المطلب الرابع : العفو عنهم بعد عبادتهم العجل

بعد أن خلّص موسى - عليه السلام - قومه من فرعون وبطشه، وأخرجهم من حياة الذلّ والعذاب، غاب عنهم موسى - عليه السلام - أربعين ليلة لمخاطبة الله عز وجل، فعبدوا العجل في غيابه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁵.

¹ البقرة: 50

² انظر: السعدي، تفسير السعدي 52/1

³ انظر: رشيد رضا، تفسير المنار 256/1

⁴ طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر، مصر، (ط1/1997) 121/1

⁵ البقرة: 52

ذهب موسى - عليه السلام - لميقات الله عز وجل، وكان ذلك لتلقي التوراة في طور سيناء، فأبطأ بالرجوع إليهم، فعبدوا العجل؛ لأنهم كانوا يألفون الوثنية بمصر، إلا أن رحمة الله عز وجل الواسعة قد غشيتهم، وعفا الله سبحانه وتعالى عما ارتكبوه من جرم¹.

ورأى صاحب تفسير المنار، أن المراد "هنا التذكير بالنعمة وبيان كفرها؛ ليظهر أن تكذيبهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ومعاندته ليس ببدع من أمرهم، وإنما هو معهود منهم مع رؤية الآيات وبعد إغداق النعم عليهم؛ ولذلك اكتفى بالإشارة إليه بقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: اتخذتموه إلهاً ومعبوداً. وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة، ثم بالعفو الذي هو جزاء التوبة، فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾² هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة.

وقد أراد الله عز وجل أن يتوب عليهم، ويظهرهم، فطلب منهم أن يؤدبوا أنفسهم بطريقة قاسية وعنيفة، حيث يقتل الأخ أخاه، فيقتل الطائع من عصي وعبد العجل؛ ليظهره ويظهر نفسه، وهذا كله لتربية نفسياتهم التي انهارت نتيجة الإذلال الذي تعرضوا له زمن فرعون³، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾⁴.

المطلب الخامس : إيتاء موسى عليه السلام التوراة لهدايتهم

أنزل الله عز وجل على الأنبياء كتباً ليبينوا للناس طريق الحق والصواب، فأنزل - سبحانه وتعالى - الزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان قد أنزل الله سبحانه وتعالى التوراة على موسى، قال تعالى:

¹ انظر: قدح، محمود بن عبد الرحمن، موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ط29، 1419)، ص250

² رشيد رضا، تفسير المنار، 1/263

³ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 1/71

⁴ البقرة: 54

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾¹ وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾².

وإنزال الشريعة نعمة عظيمة؛ لأن فيها إصلاحاً لأمر الناس، وتؤدي إلى انتظام الحياة، وتجمع الناس على كلمة الحق³، وقد أكرم الله عز وجل بالتوراة بني إسرائيل؛ ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الحق⁴.

وأنزل سبحانه وتعالى هذه الشريعة من خلال إنزال التوراة، التي كانت فرقاناً يفرق بين الحق والباطل، وبين الهداية والضلال، ومع كل هذا الفضل العظيم عليهم غلبت عليهم طباعهم السيئة أن يبقوا في الدون⁵.

وكثيراً ما قرن الله عز وجل "بين نبوة محمد-صلى الله عليه وسلم- ونبوة موسى، وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات...ولهذا قال هنا: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق. ﴿إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أي: وقفنا لهم ذلك وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ليعبدوا الله وحده⁶.

المطلب السادس: تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم

ومن النعم الفريدة، التي تفضل الله بها على بني إسرائيل، أن خصهم بالغمام الذي يظللهم من حرّ الشمس، وبالطعام من المنّ والسلوى، الذي يقيهم من الجوع، كما قال سبحانه وتعالى مذكراً إياهم: ﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا مَرَّرْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾⁷.

¹ البقرة: 53

² الإسراء: 52

³ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير 485/1

⁴ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 297/20

⁵ انظر: زيدان، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن 84/1

⁶ السعدي، تفسير السعدي، 453/1

⁷ البقرة: 57

أنعم الله عز وجل على بني إسرائيل بالكثير من النعم كما ذكر آنفاً، ومن هذه النعم أن أرسل الله عز وجل عليهم الغمام الكثيف ليظللهم، ولولا هذه النعمة، لسفعت الشمس وجوهمهم ولفحتها، كما وأنعم الله عز وجل عليهم (بالمِن والسلوى)، والمِن مادة كالعسل، لزجة وطعمها حلو، كانوا يجدونها على الحجارة والأشجار متجمدة جافة، فيجمعها الناس، والسلوى هو طائر السمن، وكانوا يأكلون أصنافاً أخرى إلى جانب المِن والسلوى، فقد كان معهم المواشي، إلا أنهم كانوا محرومين من البقول والنباتات¹.

ويغلب على جو الصحراء أنه بلا أمطار ولا سحب، أشبه ما يكون بالحمم التي تفور بالنار، فإذا بنعم الله عز وجل تنساق لهم، حيث السحب الرخية النديّة، التي تريح الأرواح والأجساد المتعبة، لكن بعد كل هذه النعم الإلهية تجد بني إسرائيل لا يهتدون ولا يشكرون بل يظلون على جحودهم وكفرهم الذي لا تتقلب عاقبته إلا عليهم².

قال النخجواني في تفسيره: "اذكروا أيضاً وقت إذ ظَلَلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ، يوم لا ظل وأنتم حينئذ تائهون في التيه في أيام الصيف، بان سار معكم حيث شئتم، ولا يزال يظل عليكم، ومع ذلك قد أنعمنا عليكم أعظم من ذلك، بان أنزلنا عليكم المَنّ ... تسكيناً لحرارتكم وتبريداً أمزجتكم، وأنزلنا أيضاً منها لغذائكم السلوى ... وأبحنا لكم تناولهما حيث قلنا لكم كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ من خصائص النعم، واشكروا لها ولا تكفروا بها"³.

المطلب السابع : إغاثتهم بالماء بعد العطش الشديد

شعر بنو إسرائيل بالعطش الشديد، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يستسقي لهم، فأنعم الله عز وجل عليهم بانفجار الماء، وكان هذا من فضل الله عز وجل عليهم، قال تعالى:

¹ انظر: رشيد رضا، تفسير المنار 267/1

² انظر: قطب، في ظلال القرآن، 72/1

³ النخجواني (ت 920 هـ) نعمة الله بن محمود نعمة الله النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، دار ركايب للنشر، مصر، 1999، 34/1

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ
كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ مِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾¹.

تبين هذه الآية عناية إلهية جديدة ببني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وكان من عادتهم أن يعودوا باللوم على موسى عليه السلام، في كل ابتلاء يحصل معهم، يلومونه بأن أخرجهم من مصر حيث خصوبة الأرض، ووفرة المياه².

لقد طلب بنو إسرائيل السقيا من موسى عليه السلام، فأمر الله تعالى موسى أن يضرب الحجر، ففجر الله تعالى الماء من اثنتي عشرة عينا³ وهي عدد الأسباط³، فظهرت معجزة من معجزات موسى عليه السلام بأن نبع الماء بواسطة ضرب الحجر، كما انفلق البحر من قبل⁴ وهذه الآية فيها تذكير لبني إسرائيل بنعم عديدة اجتمعت مع بعضها، ومنها الري بعد أن كانوا عطشى، وهي أفضل من الطعام الذي رزقوا به من قبل، وأن العيون كان عددها اثنتي عشرة عينا، حتى يشرب كل سبط على انفراد من غير تدافع⁵، لقد "أراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الري"⁶.

وأمام كل هذه النعم والشواهد على نبوة موسى -عليه السلام- كان ينبغي لهؤلاء أن تسمو نفوسهم، وأن يرتقي إيمانهم، "ولكن البنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء .. لقد أخرجهم الله -على يدي نبيهم موسى - عليه السلام - من الذل والهوان؛ ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعفة.. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف،

¹ البقرة:60

² انظر: رضا، تفسير المنار، 270/1

³ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، دار القلم، دمشق، (ط1/2007) ص 144

⁴ انظر: ابن خمير (ت 614 هـ) : أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة

الأغبياء، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان(ط1/1990)ص132

⁵ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 500/1

⁶ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 4394/7

وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية. ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف¹.

المطلب الثامن: التمكين لهم في الأرض المباركة

الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، من الأمور التي يمنحها الله - عز وجل - لعباده المؤمنين الذين يحققون الشروط التي أمرهم سبحانه بتطبيقها، وقد نصر الله عباده، وأخرجهم من الظلم الواقع عليهم؛ ليصبحوا سادة الأمم بعد مرحلة الاستضعاف، وقد مكن الله عز وجل لبني إسرائيل بعد أن كانوا مستضعفين، يذوقون ويلات الطغيان الفرعوني في مصر، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾².

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يمن على بني إسرائيل ويمكن لهم في الأرض، ويجعل منهم ملوكاً، بعدما عاشوا حياة المذلة والهوان، وينتقم لهم من فرعون ومن معه³. وأراد الله سبحانه وتعالى بحكمته أن يبين للإنسانية، أن من السنن الكونية، إنقاذ الأمة المستضعفة التي لا تملك أياً من وسائل القوة، من ظلم الأقوياء المستبدين، فهذا مثال عملي ضربه الله عز وجل حتى يبين للمتعالين عاقبة ظلمهم، وفيه إرشاد للمستضعفين بالصبر وعدم اليأس وتقوية لنفوسهم⁴، وهذه "سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكسار"⁵.

¹ قطب، في ظلال القرآن 73/1

² القصص: 6

³ انظر: الصلابي، محمد علي، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (أنواعه - شروطه وأسبابه -

مراحلته وأهدافه) مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، ومكتبة التابعين، مصر (ط1/2001) 57/1

⁴ انظر: ابن باديس (ت: 1359هـ) عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، آثار ابن باديس، تحقيق: عمار طالبي، دار

ومكتبة الشركة الجزائرية (ط1/1968) 62/4

⁵ ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط 3/1416 هـ) 75 /1

لقد جعل الله عز وجل منهم أئمة وقادة لا عبداً، وجعلهم راسخي الأقدام، وقد أورثهم الأرض المباركة التي استحقوها عندما كانوا أهل رسالة وإيمان، وكانوا حينها صالحين، وفي الآيات موازنة بين قوتين، وهما قوة فرعون، والقوة الإلهية التي لا تقف أمامها القوى المادية¹. وكان ذلك بسبب صبر بني إسرائيل على ما لحق بهم من شدائد واجهوها من فرعون وقومه، ولقد دمر الله ما كان يبني فرعون من قصور وما يزرع من أشجار وكروم²، وكان صبرهم على نوعين: "أحدهما: على طاعة الله تعالى. والثاني: على أذى فرعون"³. وقد كان هذا التمكين مقترباً بالإيمان والصلاح، وقد سلب الله عز وجل هذا التمكين بعدما عصوا وفسقوا عن أمر ربهم، وفي ذلك عبرة للمسلمين وعظه، فقد: "صدق الله هذه الأمة وعده ووفى لها، كما وفى لمن قبلها، ثم سلبها جلّ ما أعطاهَا، كما عاقب بذلك سواها، إذ نقضت عهدها كما نقضوا، وفسقت عن أمر بها كما فسقوا، واغترت بنسبها وبكتابها كما اغتروا، وإنما ناط تعالى إرث الأرض، بإقامة الحق والعدل، وبالصلاح والإصلاح لأموال الخلق، واستثنى من نيل عهده الظالمين، وتوعد بسلبه من الفاسقين، وكان الواجب عليها أن تعتبر بذلك فتتوب إلى رشدها، وتتوب إلى ربها، عسى أن يرحمها، ويتم لآخرها، ما أنجز من عهده لأولها، ولكنها لما تفعل، وعسى أن تفعل"⁴.

¹ قطب، في ظلال القرآن، 2677/5

² انظر: اسماعيل حقي (ت 1127هـ) إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، روح البيان، دار الفكر، بيروت 224/3

³ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت (ط: 1/1422هـ) 150/2

⁴ رشيد رضا، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، مصر، ص 8

المبحث الثالث : فضل الله على الناس جميعاً

تفضل الله سبحانه وتعالى على الناس جميعاً بأفضال لا تعد ولا تحصى، وقد عمّ الفضل الإلهي الناس جميعاً، مؤمنين، وعاصين، وكافرين، فنعم الله تعالى على الإنسان كثيرة، لا يمكن عدّها، وقد وصف الله نفسه بأنه ذو الفضل في مقابل وصفه أكثر الناس بأنهم لا يشكرون: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وتعددت صور فضل الله على الناس، التي ذكرها سبحانه في معرض منه وتذكيره للناس في نعمه عليهم، وبضرورة مقابلة هذه النعم بالشكر له سبحانه، وفيما يأتي بيان هذه النعم حسب المطالب الآتية:

المطلب الأول: فضل الله على الناس بنعمة البحر وما فيه من خيرات

أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم لا تعد ولا تحصى، ومن هذه النعم العظيمة نعمة البحر، وما فيه، حيث سخره الله سبحانه وتعالى للبشر حتى ينتفعوا منه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَكُمْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾¹، وفي سورة الإسراء: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾²، وقد جاء في كتاب الله الكثير من الآيات التي تتحدث عن تسخير البحر وما فيه من نعم للإنسان، وبلغت ثمانية وعشرين آية في سور مختلفة تتعلق بالبحر والفلك والملاحة، ومنها ما يتعلق بالصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان، أو النقل للبضائع أو الركاب³.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى في هذا الكون عجائب، تختلف بأشكالها، وألوانها وما فيها من خواص، فالحيوانات، والجمادات، وغير ذلك، تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى، وفضله على البشرية، ومن هذه الأفضال، فضل الله على الناس بالبحر، حيث سخره الله، لاستخراج الطعام، والكنوز، واستخدامه كوسيلة للمواصلات، والتجارة، وطلب الرزق، وهذا كله يتطلب من الإنسان أن يشكر الله سبحانه على عطائه وفضله⁴.

¹ النحل:14

² الإسراء:66

³ انظر: عبد العليم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 30

⁴ انظر: الزحيلي، التفسير الوسيط، 2/2148

والبحار مصدر الحياة مصداقاً لقول الله عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فالحياة بدأت بالماء، فهو المكون الرئيسي لكل الأحياء، وهي ماء وغذاء ودفء وطاقة وزينة وجمال، كما أن البحار مظهر من مظاهر القدرة الالهية الباهرة، ومن الدلائل على رحمة الله بالكون والانسان وجميع الاحياء، وهي عطاء جليل من رب عظيم كريم، عطاء للكون كله من أجل تيسير الحياة للإنسان والأحياء¹.

ويتمثل تسخير البحر في "تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا"². ومن نعم البحار أنها مصدر حيوي للغذاء الطري كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُؤْنٍ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني ذلك السمك من عذبهما الفرات وملحهما الأجاج، وتستخرجون الدر والمرجان من الملح الأجاج، ونعمة السفن في البحار تمخر الماء³.

ووصف لحوم البحر بالطراوة من باب "التنبية على حسنه ولطفه، وعلى التفكير في باهر قدرته وعجيب صنعه سبحانه، في خلقه إياه، على كيفية تباين لحوم حيوانات البر، مع اشتراكهما في الحيوانية"⁴.

وسبب امتنان الله سبحانه وتعالى على البشر بالبحر، "لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسموية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال، ومناطات البرهان، ومواضع النظر والاعتبار، ثم ذكر العلة في تسخير البحر"⁵.

¹ انظر: الجاويش، محمد اسماعيل، من عجائب الخلق في عالم البحار، الدار الذهبية للنشر، القاهرة، 2012، ص7

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 85/10

³ انظر: الطبري، جامع البيان، 449/20

⁴ القاسمي، محاسن التأويل، 358/6

⁵ الشوكاني، فتح القدير، 183/2

واستخراج الحلي من البحر ورد ذكره في آيات أخرى كما في سورة الرحمن، وقد كرر الله سبحانه الامتتان بهذه النعمة في القرآن؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾¹ واللؤلؤ والمرجان: هما الحلية التي يستخرجونها من البحر، وكرر في القرآن الامتتان بشق أمواج البحر للسفن، كقوله في سورة يس: ﴿وَحَفَلْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾²، ووضح الله سبحانه الابتغاء من فضله بأرباح التجارات التي يتم نقلها بالبحر³.

وثمة بُعد جمالي-يضاف إلى البعد الوظيفي- لصور السفن تمخر عباب البحر "فالتعبير كذلك عن الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال: «وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَاحِرَ فِيهِ» فهي لفظة إلى متاع الرؤية وروعها: رؤية الفلك «مَوَاحِرَ» تشق الماء وتفرق العباب .. ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآني العالي إلى الجمال في مظاهر الكون»⁴. والبحر فيه من الخيرات العظيمة، التي لم يفصل القرآن الحديث عنها، بل وردت فيه مجملة، ولا يزال العلم يظهر لنا باكتشافاته الجديدة ما في البحر من نعم، ولعل الناس في بداية تنزل القرآن لم يعرفوا ما في البحر من خيرات⁵.

المطلب الثاني: فضل الله على الناس بإرسال الرياح

ومن النعم، استخدام البشر- وعلى مدار آلاف السنين - طاقة الرياح لدفع السفن، وطحن القمح، واستخدمت حديثاً لتوليد الكهرباء، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مِبْشِرَاتٍ لِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلَّكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁶.

يقول السمعاني: "والرياح جسم رقيق يجري في الجو يمينا وشمالا على ما دبر من حركاته في جهاته ممتنع القبض عليه للطفه"⁷.

¹ الرحمن:22

² يس:42

³ أنظر: الشنقيطي، أضواء البيان، 343/2

⁴ قطب، في ظلال القرآن 2163/4

⁵ أنظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، 7542/21

⁶ الروم:64

⁷ السمعاني، (ت 489هـ) أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن

إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، 1997، 218/4

والآيات التي تتحدث عن الرياح فيها تنبيه على بعض آيات الله وأفضاله على السامعين¹، والرياح من الأدلة الحسية التي تبين قدرة الله وتدعو إلى توحيده فالحمد لله سبحانه تعالى يرسل الرياح للتبشير بالخير ونزول الأمطار، التي تحيي الأرض بعد الياس، لما في ذلك من فائدة للإنسان، فيحيي الله العباد والأراضي، كما أنه سبحانه يرسل الرياح لتلقيح النباتات والأشجار، ولتبحر السفن في البحار، ولتمكين المسافرين والتجار من ممارسة التجارة، وطلب الفضل الإلهي والمكاسب المشروعة، وليشكر الناس ربهم على ما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة التي لا تحصى².

وإرسال الرياح "مستعار لتقدير الوصول، أي يقدر تكوين الرياح ونظامها الذي يوجهها إلى بلد محتاج المطر، والمبشرات: المؤذنة بالخير وهو المطر، وأصل البشارة: الخبر السار، شبهت الرياح برسل موجهة بأخبار المسرة"³.

والآيات فيها "إشارة إلى هذه النعم العظيمة، العامة الشاملة، وهي الرياح التي يرسلها الله مبشرات، تسوق بين يديها السحاب، الذي يحمل الحياة للناس، والدواب، والأنعام، والأرض، بما ينزل منه من ماء .. فهو الرحمة التي ينزلها الله على عباده، ويذيقهم منها طعوم فضله وإحسانه ... والبشرى التي تحملها الرياح إلى الناس، فيها سعادة، ورضا، وتهيؤ لاستقبال هذا الخير الوافد"⁴.

والله "يرسل الرياح لينا هبوبها، طيباً نسيما، أمام غيئه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحاباً ثقلاً حتى إذا أقلتها و"الإقلال" بها، حملها، كما يقال: "استقلّ البعير بحمله"، و"أقله"، إذا حمّله فقام به فساقه الله لإحياء بلد ميت، قد تعفّت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجذب أهله، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات"⁵.

¹ انظر: دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1383هـ، ودار الغرب الإسلامي — دمشق 456/5

² انظر: الزحيلي، التفسير الوسيط، 2007/3

³ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 71/21

⁴ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 535/11

⁵ الطبري، جامع البيان، 491/12

وفي الآيات جمع بين إرسال الرسل وإرسال الرياح وفيه كل ذلك رحمة وفضل، وكلها من آيات الله، ومن نعمته ورحمته¹.

المطلب الثالث: فضل الله على الناس بنعمتي الليل والنهار

الليل والنهار من الظواهر الطبيعية، والنعم العظيمة التي تفضل الله سبحانه وتعالى بهما على عباده، وهما من أهم الظواهر التي حظيت باهتمام البشر وعلماء الطبيعة والفلك، على مدار التاريخ، وقد ورد في القرآن الكريم، الكثير من الآيات التي تتحدث عن هذا الفضل العظيم ومن ذلك:

فضل الله على الناس بأن جعل الليل للراحة والنهار لطلب الرزق:

يمتن الله عز وجل على الناس، بأن خلق لهم الليل والنهار، حيث جعل الليل للراحة والسكون، بعد الكد والتعب الذي يلقاه الإنسان في النهار، الذي جعله الله تعالى حتى يعمل فيه الإنسان في طلب الرزق وممارسة حياته اليومية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ مَرْحَمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾²، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾³، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾⁴

ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو تفكرنا فيه لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، لما فيه من تناسق، ولما وراءه من تدبير لنظام دقيق وإحكام⁵.

ويمتن الله تعالى على الناس وهو يدعوهم، إلى عبادته وشكره، فهو الذي أنعم عليهم بالنهار لطلب الرزق، وجعل لهم الليل للسكون والراحة بعد التعب بفضله⁶.

¹ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 5/2774

² القصص: 73

³ الروم: 23

⁴ الإسراء: 12

⁵ انظر: الجليل، عبدالعزيز ناصر، أفلا يتفكرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، (ط1/2005) ص94

⁶ انظر: السعدي، تفسير السعدي 263

والليل والنهار آيتان دالتان على قدرته وحكمته تعالى، فهو سبحانه يرشدنا لنبتغي مطالبنا الإنسانية من فضله، وهي مما امتن الله به علينا¹، "وإن تعاقب الليل والنهار مجال النشاط العمراني الذي تقوم به الحياة الدنيا، وهو كذلك مجال النشاط الديني الذي يعرف به الله، وتكفل به الحياة الأخرى"².

ومن فضل الله على الناس بالليل والنهار، أنهم يعرفون بداية السنين ونهايتها، ومعرفة أوقات الليل والنهار، وقد بين سبحانه هذا الفضل للناس في القرآن حتى يشكروا الله على نعمه ويعبدوه بإخلاص³.

وتتناسب حالة الليل المظلمة مع ما يحتاجه الإنسان من هدوء وراحة، وكذلك تتناسب حالة النهار للعمل والانشغال بأمور الدنيا، لما فيه من إضاءة، فلن تصلح الحياة لو كانت كلها ليلاً، دائماً أو نهاراً سرمداً، فهذا يشق على الإنسان، لذلك كان تقسيم اليوم إلى ليل ونهار من أعظم نعم الله وفضله على الإنسان⁴.

والمقصود بمحو آية الليل أي "ظلمة الليل التي تخفى فيها الأشياء... فالليل للراحة والسكون والجمام، والنهار للسعي والكسب والقيام، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين، ويعلمون حساب المواعيد والفصول والمعاملات"⁵.

وتأمل دقة التعبير القرآني، وروعة صياغته للألفاظ، فقد قابل (لتسكنوا فيه) بـ (لتبتغوا من فضله)، ولم يقل سبحانه: (لتتحركوا فيه)، فإنه عدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل، لكون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون المفسدة⁶.

¹ انظر: الميداني (ت2004 م)، عبد الرحمن بن حسن حبَّكة، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، (ط1/ 1998) ص220

² الغزالي، محمد (ت1999 م)، الجانب العاطفي من الإسلام، دار نهضة مصر، مصر، ط1، ص51

³ انظر: الطبري، جامع البيان، 395/17

⁴ انظر: الشنقيطي، أضواء البيان 56/3

⁵ قطب، في ظلال القرآن 4/ 2266

⁶ الحموي، (ت: 837هـ)، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراي ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، (ط: 2004) 129/1

المطلب الرابع: فضل الله على الناس بسنة التدافع

أشار القرآن الكريم إلى هذه السنة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾¹.

تعدّ سنة التدافع من أهم السنن الكونية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في حياة البشر، وهي ماضية منذ فجر التاريخ، وترتبط علاقتها بالبشرية جمعاء، وقد فهم المسلمون الأوائل هذه السنة وطبقوها، فالحق يحتاج للعزيمة القوية جسدياً ومعنوياً².

وسنة التدافع بين الحق والباطل، واحدة من أبرز سنن التدافع بين البشر، فحين يقوم المؤمنون الذين يحملون الحق، ويسعون لإقامة الدين في حياة الناس، وإدارته لشؤونهم، ينشأ التصادم بين قوى الحق وقوى الباطل، وذلك أمر حتمي الوقوع، فلا يمكن أن يجتمع أهل الإيمان والفجور، وهذا يتطلب التصادم والتدافع بين الفريقين، فلا يتعايش الحق والباطل بسلام في الكون، فأهل الحق يحاولون وقف تأثير أهل الباطل في الحياة والمجتمع، فلا بدّ من غلبة أحدهما على الآخر³.

وتتنوع سنة التدافع؛ فيكون التدافع بالأفكار أو العقائد، أو ربما يكون بثقافات ومناهج، وهي مقدمة للتدافع الحربي والسياسي، فالحرب تتولد من الأفكار والعقائد⁴. ومن صور سنة التدافع في الكون، في كل زمان ومكان، أن يسلط الله الظالمين بعضهم على بعض، وانشغالهم ببعضهم وفي ذلك فرصة لأهل الحق⁵.

¹ البقرة: 251

² انظر: الصلابي، محمد علي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (ط2/2008)، 395/1

³ انظر: زيدان، عبد الكريم، السنن الإلهية، مؤسسة الرسالة، لبنان، ص36، 37

⁴ انظر: الصلابي، محمد علي، السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، (ط1/2007) 9/1

⁵ انظر: الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، دار نهضة مصر، مصر، ط1، ص183

المطلب الخامس: فضل الله بأن جعل الناس والمخلوقات متفاوتين

يتفاضل البشر والمخلوقات في كثير من الأمور، وهذا التفاضل واقع حتى بين الأنبياء كما مرّ سابقاً، فالناس يتفاوتون، بالإيمان والكفر، وبالرزق، وبالغنى والفقر، وبالقوة والضعف، وبالكثرة والقلّة، وأشياء أخرى كثيرة، والله عز وجل يبين للناس أن ثمة تفاضلاً أعظم من تفاضل، وأن التفاضل في الآخرة أكبر من التفاضل في الدنيا الزائلة، قال تعالى: ﴿نُظَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ الْكِبَرُ دَرَجَاتٍ وَكَبُرُ تَفَضُّلاً﴾¹، وقال تعالى في التفاوت بالرزق بين الناس: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾²، وقد جاء في كتاب الله أن التفاضل واقع حتى بين النباتات التي تزرع في أرض واحدة، وتتفاضل في طعمها، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ مُنْتَوِينَ وَخَيْرٌ مِمَّا يَشْتَبُونَ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾³، أي "في الأرض قطع منها متقاربات متدانيات، يقرب بعضها من بعض بالجوار، وتختلف بالتفاضل مع تجاورها وقرب بعضها من بعض، فمنها قطعة سبخة لا تنبت شيئاً، في جوار قطعة طيبة تنبت وتتفع"⁴.

فالناس في طلب الآخرة متفاوتون، فمنهم من يطلبها ويسعى لها ومنهم غير ذلك، فيسرّ الله أمور من يعمل للآخرة، وترك أولئك الذين لا يريدونها، بل أضلّهم الله، وجعل على أبصارهم غشاوة، وذاك الفريق الذي يطلب الآخرة ويعمل لها له منزلة أعلى وأعظم في الجنة، عكس أولئك الذين أرادوا الدنيا فبسطها الله لهم⁵.

والوقوف مع حالات التفاوت التي ذكرها القرآن الكريم، يحتاج لسعة، ومن أمثلة ذلك أن حكمة الله في حكم التفاوت في الرزق، أن الله تعالى فضّل بعض الناس على بعض في الرزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، أي حتى يسخر بعضهم لخدمة بعض، ولو كان الناس كلهم أغنياء،

¹ الإسراء: 21.

² النحل: 71.

³ الرعد: 4.

⁴ الطبري، جامع البيان، 330/16.

⁵ انظر، المرجع السابق، 114/17.

لما خدم أحدٌ أحداً، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾¹.

والناس في الدنيا، يتفاوتون، بالغنَى والفقر، والحسن والقبح، وحتى في الأعمار، فبعضهم يموت صغيراً، وبعضهم يشيخ ويعمر، التفاوت والتفاضل بالآخرة أكبر منه في الدنيا، فبعض الناس يطوق بالسلاسل والأغلال ومكانه في دركات جهنم، ومنهم من يكون في النعيم المقيم، والنعيم والسرور، والدرجات العليا من الجنة².

ومكانة الإنسان في الآخرة مبنية على إيمانه وعمله الصالح في الدنيا، لا ما كان من عرض الحياة الزائلة³.

والآية تدعو الناس ليتأملوا، فالبشر يتفاوتون في الدنيا بأشياء كثيرة، وهم في الآخرة أكثر تفاضلاً في درجاتهم ومنازلهم مما كان في الحياة الدنيا⁴.

وفي معرض حرص القرآن على تطهير قلب المؤمن من المشاعر السلبية، كالحقد والحسد والحسرة، نهت الآيات القرآنية أن يتمنى الإنسان ما تفضل الله به على غيره من الفضائل الدنيوية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾⁵.

ومن صور نهى الله سبحانه تمنى الناس ما فضل الله به بعضهم على بعض أن "تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال تمنيا مجردا، لأن هذا هو الحسد بعينه"⁶.

¹ الزخرف:32

² انظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 63/5

³ انظر: رشيد رضا، تفسير المنار 386/5

⁴ انظر: طنطاوي، (ت2010م) محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1998/8) 321/8

⁵ النساء:32

⁶ السعدي، تفسير السعدي 176

الفصل الرابع

سبل تحصيل فضل الله، وموقف كل من المؤمنين، واليهود،
والمنافقين من فضل الله

المبحث الأول: سبل تحصيل فضل الله

المبحث الثاني: موقف كل من المؤمنين، واليهود، والمنافقين من
فضل الله

المبحث الأول: سبل تحصيل فضل الله

ما كان للقرآن الكريم أن يحدّد للناس الغايات من دون أن يرسم لهم السبل لتحقيقها وإنجازها، فهو كما جاء في الآية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾¹، وحينما رغب الله المؤمنين بفضله لم يدعهم حائرين في كيفية الوصول إلى هذا الفضل العظيم منه سبحانه، ولذلك وردت آيات عديدة تحدد السبل لحيازة هذا الفضل الرباني الكبير والعظيم، ومن هذه السبل:

المطلب الأول: الإيمان بالله والاعتصام به

دعا الله- سبحانه وتعالى- الناس في كتابه الكريم إلى الاعتصام به، لما في ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وقد بيّن سبحانه الفضل الذي سيناله هؤلاء المعتصمون، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ²، والفضل هو الزيادة التي يعطيها الله سبحانه للمؤمنين على ما يستحقونه من الجزاء الأخروي من نعيم الجنة، والمؤمنون كذلك رحمة للناس في الحياة الدنيا لما يقدموه من علم وفضائل، وتعاون، وتراحم بين الناس، واقتداء الناس بهم، ورحمتهم بغيرهم³.

لقد أخبر الله تعالى المؤمنين الذين أقرّوا بالوحدانية، وآمنوا بالرسول- صلى الله عليه وسلم- وتمسّكوا بكتابه الكريم، واعتصموا بالله تعالى، بأنهم سوف ينالون رحمته سبحانه، وسيدخلون الجنة، وينجون من عقابه، وسيوفقهم الله لفضله، وسيهديهم للطريق المستقيم ويوفقهم لاتباع المنهج القويم، المتمثل بهذا الدين الحنيف⁴.

ومن الأسباب التي نال هؤلاء المؤمنون لأجلها الفضل الإلهي، أنهم جمعوا بين مقام العبادة، ومقام التوكل على الله في أحوالهم جميعها، ولأجل ذلك كله زاد الله ثوابهم ورفع درجاتهم⁵، فهم قد اعترفوا بوجود الله سبحانه وأقرّوا باتصافه "بكل وصف كامل، وتنزيهه من

¹ النحل: 89

² النساء: 175

³ انظر: رضا، تفسير المنار، 84/6

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان، 429/9

⁵ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 481/2

كل نقص وعيب. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِهِ﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات¹.
 ويعدّ الفضل الإلهي هنا فضلاً خاصاً، ومما يدل على أنه خاص، تكرير (فضل، ورحمة)، وفضل الله ورحمته لا ينحصران، لكن الله تعالى يختص من يشاء بما يريد من أنواع فضله ورحمته².

والاعتصام بالله والإيمان به متلازمان، لا يفترقان وهما ثمرة ملازمة للإيمان به .. متى صح الإيمان ، ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له. فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده. وهو صاحب السلطان والقدرة وحده .. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل. رحمة في هذه الحياة الدنيا - قبل الحياة الأخرى - وفضل في هذه العاجلة - قبل الفضل في الآجلة - فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الضلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرود³.

المطلب الثاني: الاستغفار والتوبة

أمر الله سبحانه وتعالى - المؤمنين في كتابه الكريم بالاستغفار والتوبة، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يكثر الاستغفار؛ فهو من أفضل العبادات التي تجلب الخير والنفع لفاعلها، قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُصْغِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾⁴.

والمقصود بالاستغفار "طلب المغفرة للذنوب، أي طلب عدم المؤاخذه بما مضى منهم من الشرك، وهو هنا مكني به عن ترك عقيدة الشرك؛ لأن استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده

¹ السعدي، تفسير السعدي، ص 217

² انظر: رضا، تفسير المنار، 84/6

³ قطب، في ظلال القرآن 822/2

⁴ هود: 3

ويستلزم اعتراف المستغفر بذنب في جانبه¹.

ويعدّ الاستغفار سبباً في بسط الخير الدنيوي، والحصول على الرزق، ومن يستغفر الله ينسأ له في أثره، ويتفضل الله تعالى عليه ويجزل له الثواب، ويزده من فضله في الآخرة²، ثم إن الاستغفار مع الإقلاع عن الذنوب، سبب للخصب والنماء، وكثرة النسل، وزيادة العزة والمنعة، ففي الإيمان رحمة بالعباد، وفي الاستغفار بركات الدين والدنيا ... فما أعظم بركات الاستغفار والإنابة إلى الله، بهما تستنزل الرحمات، وتبارك الأرزاق، وتكثر الخيرات، ويعطي الله الأموال والبنين، ويغفر الذنب، ويمنح القوة والسداد والرشاد³.

قال ابن تيمية رحمه الله: "فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعاتهم وأجلّ عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب"⁴. ولا شك أن الاستغفار فيه عودة لله سبحانه، وللقرآن الكريم، وله أثر واضح في حياة صاحبه، وحياة المجتمع، والأمة بأكملها، وفيه طريق لحياة الاستقرار المليئة بالفضل، ويفتح الله به بركات من السماء والأرض، ويعمّ الرزق، ويتنزل الغيث، وتزداد قوة الأمة المعنوية والمادية⁵.

والاستغفار مطلوب من الأمة جمعاء، لتفريج الكربات وتحصيل الخيرات، ومن يتفكر في لفظ الاستغفار يجد أنه يخاطب الأمة ككل، حيث ورد بصيغة الجمع غالباً⁶. وقد أمر الله سبحانه وتعالى - المؤمنين بالمسابقة إلى الاستغفار، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁷.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 287/11

² انظر: الطبري، جامع البيان، 229/15

³ السدلان صالح بن غانم بن عبدالله بن سليمان بن علي، التوبة إلى الله - معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها، دار للنسبية للنشر والتوزيع، (ط4/1416 هـ) ص15 و16

⁴ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، 53/15

⁵ انظر: البيرة، سليمان صادق، الاستغفار وثمراته في القرآن، مكة المكرمة، ص3

⁶ انظر: المرجع السابق، ص18

⁷ الحديد: 21

ومعنى المسابقة إلى مغفرة الله" أنه لا يقرب عند الله إلا السابقون وذلك يدل على أن كمال الفضل منوط بالمسابقة¹، والأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله، يكون بالسعي وراء أسباب المغفرة، والحصول على رضوانه تعالى، بالبعد عن المعاصي والذنوب، والسعي للعمل الصالح، وكل ما يرضي الله سبحانه، والإحسان في العبادة، ونفع الخلق².

وفي الآيات دعوة "موجهة إلى المخاطبين بأن يسارعوا - والحالة هذه - إلى اصطناع الأسباب إلى غفران الله ورضوانه وجنة عرضها كعرض السماء والأرض قد هيئت للذين يؤمنون بالله ورسوله. وهذا من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم"³.

المطلب الثالث: العمل الصالح

أخبر الله - عز وجل - في كتابه الكريم أن الإيمان والعمل الصالح هما سببان للمجازاة بالفضل المنسوب إلى الله، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾⁴، ولقد خص الله سبحانه الذين يعملون الصالحات، بالفضل من عنده، ويشمل العمل الصالح أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، ومن يفعل ذلك يجزه الله بالفضل الممدود، وكرمه الواسع، فالله تعالى يحب المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويجزل لهم الفضل والعطاء في الدنيا والآخرة⁵.

وينبغي أن تتوفر ثلاثة شروط للعمل حتى يكون صالحاً:

أولاً: موافقة القرآن الكريم، والسنة النبوية

ثانياً: أن يكون العمل خالصاً لله سبحانه

ثالثاً: أن يكون مبنياً على عقيدة سليمة⁶

¹ الرازي، جامع البيان، 114/4

² انظر: السعدي، تفسير السعدي ص148

³ دروزة، التفسير الحديث، 322/9

⁴ الروم: 45

⁵ انظر: السعدي، تفسير السعدي، ص643

⁶ انظر: الشنقيطي، أضواء البيان 440/2

ويتطلب من المؤمن أن يعمل الصالحات، حتى يحتفظ الإنسان بإنسانيته، ويكون من الفائزين، فالناس فريقان، أصحاب الجنة؛ وهم الذين يعملون الصالحات، فينالون من فضل الله العظيم، والفريق الآخر هم أهل النار الذين كفروا وسينالون عقابهم¹.

ويقترن في كثير من الآيات الإيمان بالعمل الصالح، وأحياناً، "استغني بذكر العمل الصالح عن ذكر الإيمان، لأنه يتضمنه، ولتحريض المؤمنين على الأعمال الصالحة لئلا يتكلموا على الإيمان وحده فتفوتهم النجاة التامة. وهذا اصطلاح القرآن في الغالب أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح"².

ويهيء عمل الصالحات "أسباب الراحة في ذات اللحظة التي يقوم فيها بالعمل الصالح لا بعدها. وهذا هو الظل الذي يلقيه التعبير. وذلك : «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .. «مِنْ فَضْلِهِ» .. فما يستحق أحد من بني آدم الجنة بعمله. وما يبلغ مهما عمل أن يشكر الله على جزء من فضله. إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين"³.

وقد بين الله سبحانه، جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾⁴.

فالذين يعملون الصالحات لهم "عند ربهم في الآخرة ما تشتهيهم أنفسهم، وتلذذ أعينهم، ذلك هو الفوز الكبير، ويختزل اسم الإشارة (ذلك) العديد من العطايا التي وهبها الله للمؤمنين، ومن هذه العطايا، أنه تحيط بهم روضات الجنات لا روضة واحدة، ولا جنة واحدة. ولهم ما يشاءون ويشتهون، وهم عند ربهم، أي في ضيافة ربهم، وهل مضيف أعظم من الله، وهل فضل أكبر من فضله؟؟ حقاً إنه الفضل الكبير.

¹ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 291/7

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 69/21

³ قطب، في ظلال القرآن، 2773/5

⁴ الشورى: 22

ومن يعمل الصالحات التي شرعها الله وهو مؤمن، يعيش الحياة طيبة في الدنيا والآخرة، وينال الكثير من وجوه الفضل والرضا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹.

المطلب الرابع: طاعة الله-سبحانه وتعالى-

بين الله في القرآن الكريم، فضل طاعته وطاعة رسوله، وأخبر سبحانه أنها توصل الإنسان إلى المراتب العليا، والرفقة الصالحة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ مَرْفِقًا﴾ (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا² ويوجه الله سبحانه دعوة للمؤمنين "أن يستجيبوا لله وللرسول، وأن يمتثلوا أوامر الله، وأن يحتكموا إلى كتاب الله، وإلى رسول الله، فإن هم فعلوا ذلك كانوا في عداد الصالحين، الذين رضى الله عنهم، وأجزل المثوبة لهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، ففي هذا المنزل الكريم ينزل ذلك الذي يطيع الله ورسوله، ومع هؤلاء النفر الكرام من عباد الله المقربين المكرمين ينعم بما ينعمون، ويسعد بما يسعدون"³.

وقد وعد الله تعالى من سلك طريق الحق، وعاش حياته طائعاً لله ورسوله أن يدخله الجنة، ويرزقه الصحبة الصالحة مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وكل ذلك فضل من الله وزيادة منه على ثوابهم الذي استحقوه⁴.

فكل مؤمن أطاع الله وعمل "بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون"⁵، والأنبياء هم الذين اختصهم الله بتبليغ الرسالة إلى الخلق، والصديقون هم من اكتمل تصديقهم بما جاء به الرسل، والشهداء الذين

¹ النحل: 97

² النساء: 70

³ الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 380/3

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان 530/8

⁵ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 353/2

قتلوا في سبيل الله، والصالحون من صلح ظاهرهم وباطنهم، وكل ذلك نالوه فضلاً من الله على طاعتهم، ولم يبلغوه بأعمالهم فقط¹، ودلالة (من) في (ذلك الفضل من الله)، أي أن هذا الفضل مبدؤه ومصدره هو الله سبحانه وتعالى، الذي لا يماثله أحد في الفضل سبحانه.

المطلب الخامس: تلاوة القرآن وإقامة الصلاة والزكاة والإخلاص والرجاء

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ (29) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَرْبِدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ².

أخبر الله - عز وجل - عن الجزاء العظيم، والفضل الكبير الذين فيهما الزيادة الكبيرة بالعطاء، على أهل الوفاء الذين يحافظون على تلاوة كتاب الله، ويطبقون الصلاة المفروضة عليهم، على أكمل وجه ومن غير تقصير بشروطها وأركانها، ودفعوا من أموالهم بأداء الزكاة، وتقديم الصدقات بالخفاء والعلن، فهؤلاء يتاجرون مع الله، وتجارتهم رابحة وفضل الله عليهم واسع وكبير³، فهو سبحانه يوفيهم الثواب الجزيل على ما فعلوه، ويتضاعف هذا الثواب بالزيادة التي لم تخطر لهم، والمغفرة للذنوب القليلة التي ارتكبوها⁴.

إنها التجارة الربحية مع الله، لا يحصل المؤمن فقط على حقه وافيّاً كاملاً، بل إن هناك المزيد من الفضل المنسوب إلى الله تعالى، فهي "أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابها"⁵.

وتلاوة القرآن لا تقتصر على ألفاظه فقط، بل يدخل ضمن ذلك دراسته، وتتبع معانيه واستخراجها، والحديث عن الصلاة؛ لأنها عماد الدين، وعلامة الإيمان، وضيء للمسلمين.

¹ انظر: السعدي، تفسير السعدي، ص 185

² فاطر: 30

³ انظر: الطبري، جامع البيان، 463/20

⁴ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 545/6

⁵ السعدي، تفسير السعدي، ص 689

ودفع المال كإيتاء الزكاة المفروضة، والصدقات، والكفارات، والنذور في أوقاتها، تجارة للمؤمنين لن تكسد، بل فيها الربح العظيم، ورضا الله، والفوز بثوابه، والنّجاة من عذابه، وكل ذلك زيادة على أجورهم التي يستحقونها¹.

وختم (غفورٌ شكور) لأنه غفر الذنوب، وعفا عن السيئات، وشكور؛ لأنه ضاعف الحسنات، وزاد في العطاء، فوق ما يستحقه المؤمنون.

قال الرازي: "(لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ) أي ما يتوقعونه ولو كان أمرا بالغ الغاية (وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة إنه غُفُورٌ عند إعطاء الأجور شكُورٌ عند إعطاء الزيادة"². فسبحان الله على فضله، والحمد لله على منّه وكرمه بعباده المؤمنين.

¹ انظر: السعدي، تفسير السعدي ص 689

² الرازي، مفاتيح الغيب، 236/26

المبحث الثاني: موقف كل من المؤمنين واليهود والمنافقين من فضل الله

لقد حدد القرآن الكريم مواقف الأطراف جميعاً من فضله على الناس بما في ذلك المؤمنون، والمنافقون، ويهود، وصور موقف كل فئة منهم تصويراً دقيقاً، يغوص في النفوس، فيكشف عما يخالطها من مشاعر دفينية، سواء من جانب المؤمنين الذين امتزجت مشاعرهم بالإيمان، وبحب الله، ورجاء فضله، أو المنافقين ويهود، الذين فضح القرآن حقيقة طواياهم الخبيثة التي ترق فيها أحاسيس موهلة بالحسد ومظلمة بالغيرة، ومسودة بالحق، وفي هذا التحديد للفئات الثلاث مؤشرات ودلائل على مدى إيمان أو قلة إيمان، أو كفر كل فئة، وفيما يأتي تفصيل لأحوال الفئات الثلاث.

المطلب الأول: فرح المؤمنين بفضل الله

ورد الفضل في القرآن الكريم، تارة في موضع المدح، وتارة في موضع الذم، ومن مواضع الفرح المحمود، قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾¹، فتنص هذه الآية على أن الله تعالى أمر "بالفرح بفضل ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما"².

ويعدّ الفرح بفضل الله محموداً؛ "لأن السرور بالنعمة مع تذكر أنها فضل من الله لا يحدث بطراً، ولا غروراً، وإنما يحدث شكراً، وإحساناً في العمل، فإذا فقهت هذا كله علمت أن الذين يفرحون بأعمالهم - فرح بطر واختيال وغرور - يكونون مستحقين للوعيد بالعذاب"³.

وهناك دواعٍ للفرح ممقوته، وأخرى غير ممقوته "فالفرح في ذاته ليس ممقوتاً، ولكن الممقوت بعض دواعي ذلك الفرح، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله، وأن يفرح بإعلاء

¹ يونس: 58

² السعدي، تفسير السعدي، ص 366

³ رضا، تفسير المنار 240/4

كلمة الحق، وهذه دواع مشروعة، ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادئ الله ليدحض ذلك المبدأ، وهذا ما يفرح به الكافر، ولكن الفرح الحقيقي هو الفرح الذي لا يعقبه ندم¹. وللشعور بالفرح المقام الأعلى في قلب الإنسان "والفرح بالشيء فوق الرضا به؛ فإن الرضا طمأنينة، وسكون، وانتشراح، والفرح لذة، وبهجة، وسرور؛ فكلُّ فرحٍ راضٍ، وليس كلُّ راضٍ فرحاً؛ ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضا ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه إلا ما كان مع العجز عن الانتقام"².

والفرح بفضل الله يكون في الدنيا والآخرة، ومن صور الفرح في الآخرة ما خصَّ الله تعالى به الشهداء، قال تعالى: (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)³ فهم يستقبلون رزق الله بالفرح؛ لأنهم يدركون أنه «مِنْ فَضْلِهِ» عليهم. فهو دليل رضاه، وهم قد قتلوا في سبيل الله. فأى شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه؟⁴.

وقد أخبر الله- سبحانه وتعالى- عن فضله على الشهداء، فهم يرزقون بما في الجنة من مأكّل ومشرب، ويتنعمون بهذا النعيم في حياة البرزخ قبل البعث، وبعد البعث دون غيرهم من سائر البشر، ويتلذذون بما يطعمهم؛ وذلك لأن الله سبحانه خصَّهم بفضله دون غيرهم في كثير من الأشياء⁵، فهم أحياء، متنعمون برزق الله لهم، مسرورون بما آتاهم الله من كرامته وفضله وجزيل ثوابه⁶، "وهم فرحون مما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم"⁷.

¹ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1937/3

² ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط2/1973) 158/3

³ آل عمران: 170

⁴ قطب، في ظلال القرآن، 1/518

⁵ انظر: الطبري، جامع البيان، 3/216

⁶ انظر، المرجع السابق، 7/384

⁷ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2/165

فالشهداء يفرحون بفضل الله عليهم "زيادة على ذلك الرزق الذي استحقوه بعملهم، فالفضل ما كان في غير مقابلة عمل، كما قال" ﴿لِيُؤْفِكَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾¹.

المطلب الثاني: حسد اليهود لفضل الله على المؤمنين بالرسالة

بشرَّ الله سبحانه وتعالى في التوراة والإنجيل ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾²، ويشير هذا النص في كتاب الله تعالى إلى أن اليهود كانوا يعلمون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان صادقاً بنبوته، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾³، لكنهم -على الرغم من ذلك- أنكروا هذا الفضل الإلهي العظيم الذي تفضل به الله سبحانه على نبيه -صلى الله عليه وسلم- ولم يؤمنوا به، ولم يتبعوه، بل ناصبوه العدا، وحرّضوا عليه، وكتبوا الحقيقة التي توجد بالتوراة والإنجيل، والتي تتحدث عن صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- فما السبب الذي دعاهم إلى التكذيب بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وإنكار نبوته مع علمهم بصدقه، وصدق رسالته؟ إن ما دفعهم إلى ذلك كله هو الحسد كما أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم.

يُعدّ الحسد من الأمراض النفسية الخطرة، وهو كذلك من الأخلاق الذميمة، وقد أمرنا الله بالاستعاذة منه في كتابه العزيز، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾⁴، وقد بين الله -عز وجل- أن الحسد صفة لصيقة باليهود، فقد حسدوا النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما آتاه الله من فضل النبوة والرسالة، ولقد أشار القرآن إلى "هذا الحسد المذموم، حينما وصف حسد اليهود والمشرّكين للنبي -صلى الله عليه وسلم- على ما خصه الله به من فضل النبوة، وحسد

¹ رضا، تفسير المنار، 198/4

² الصف:6

³ البقرة:146

⁴ الفلق:5

للمؤمنين على ما خصهم الله به من فضل الإيمان والهداية¹، يقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾²، والتعبير بصيغة الفعل المضارع (يحسدون) فيه دلالة على الاستمرارية، وعلى تواصل حقدهم على النبي-صلى الله عليه وسلم- وعل دعوة الاسلام، وهذا ما أثبتته التاريخ القديم، والواقع المعاصر، فهم أشدّ أعداء الإسلام، وأكثرهم مكرًا باتباعه.

وقد كان من أسباب حقدهم أنه سبحانه جعل الرسالة في العرب لا في اليهود، فكفروا بالرسالة مع علمهم بصدقها³.

وموقف الحسد الذي اتخذوه يظهر قبحهم، ويفضح أخلاقهم الذميمة، ويبين خبث طباعهم، فهم اختاروا الإيمان بالجبّ والطاغوت وهو ما يعبد من دون الله⁴، والواضح أن الحسد كان متأصلًا في نفوسهم، بالغًا منتهاه في قلوبهم⁵.

لقد أتى الله تعالى اليهود الكثير من فضله، ومكّن لهم في الأرض، وقد غمرهم عطاء الله سبحانه منذ زمن إبراهيم- عليه السلام- لكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، ولم يحفظوا الفضل الإلهي، وكانوا يطمعون بالحفاظ على السيادة على العرب المتخاصمين الذين لا يجمعهم دين⁶. ومن مظاهر الحسد اليهودي لفضل الله ما يأتي:

أولاً: كتمان هذا الفضل الإلهي

جاء فيما سبق أن اليهود كانوا يعلمون تمام العلم صفات النبي-صلى الله عليه وسلم- ويعلمون صدقه وصدق ما جاء به، إلا أنهم كتموا ذلك، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْخُلِّ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾⁷.

¹ نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، مصر، (ط7/2001) ص99

² النساء: 54

³ انظر: الطبري، جامع البيان، 343/2

⁴ انظر: السعدي، تفسير السعدي، ص182

⁵ انظر: الألوسي، روح المعاني، 356/1

⁶ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 682/3

⁷ النساء: 37

قال مجاهد في تفسير الآية: "هم اليهود، بخلوا أن يبينوا نبوة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كتابهم، وأمروا الناس بذلك، وكتموه أن يظهره"¹.

وكان اليهود يعرفون "الآيات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ، وكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ، ويصرفونها عن محاملها الصحيحة الدالة على نبوة محمد عليه السلام"².
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾³.

فقد بخلوا في بيان اسم الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبيان صفاته التي يعرفونها من خلال التوراة، وكانوا يحرضون من يعلم هذه الصفات أن يكتمها⁴، وجمع اليهود بين البخل بالمال والبخل بالعلم، ولم يكتفوا بخسارة أنفسهم، بل عملوا على خسارة غيرهم كذلك؛ لحرصهم على عدم هدايتهم للإسلام⁵.

وكتمان الفضل الإلهي، يشمل كتمان المال والعلم، والمقصود بالكتمان هنا هو كتمان كافة أصناف الإحسان⁶، وما فعله اليهود هنا كان "كتمانهم للحقائق التي يعرفونها في كتبهم عن هذا الدين، وعن رسوله الأمين"⁷.

وقد تحدّثت الآيات القرآنية في مواضع عديدة، عن كتمان اليهود للفضل الإلهي، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾⁸،

لقد كتم اليهود صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- التي توجد في التوراة التي بين أيديهم، وكان السبب وراء كتمانهم هو خوفهم على فقدهم المكانة التي يحظون بها عند العرب، ولأن حقدهم وحسدهم كذلك دفعهم لكتمان صفاته -صلى الله عليه وسلم-.

¹ مجاهد(ت:104هـ) أبو الحجاج بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تفسير مجاهد، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، (ط1/1989) ص276

² الرازي، مفاتيح الغيب 204/5

³ الأعراف:157

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان، 350/8

⁵ انظر: السعدي، تفسير السعدي، ص177

⁶ انظر: رضا، تفسير المنار، 79/5

⁷ قطب، في ظلال القرآن، 660/2

⁸ البقرة:174

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "يعني تعالى ذكره بقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ"، أَهْبَارَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَتَمُوا النَّاسَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُبُوتَهُ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ"¹.

ثانياً: تمنيههم عدم نزول الرسالة على المؤمنين

لقد بعث الله تعالى الكثير من الأنبياء من ذرية إسحاق، فلما بعث الله سبحانه وتعالى - النبي صلى الله عليه وسلم، من ذرية إسماعيل، كره اليهود ذلك، وكذلك العرب كرهوا بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه حارب عبادة الأصنام²، قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَئِنْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكَ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾³، لقد كان المشركون من اليهود، وكفار قريش، يتمنون أن لا ينزل الله - سبحانه وتعالى - الرسالة والقرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - بل كان اليهود يحبون أن تنتزل الرسالة عليهم⁴، وكان نزول الرسالة على غير اليهود سبباً في اتخاذهم هذا الموقف العدائي من المسلمين⁵، علماً أن اليهود كان ديدنهم أن يكذبوا أنبياءهم، فقد قتلوا الكثير من الأنبياء، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِقًا تَقْتُلُونَ﴾⁶.

وقد كان اليهود يدركون ما لهذا القرآن من تأثير على المؤمنين، ولذلك كانوا لا يودون أن ينزل عليهم أدنى خير من ربهم، والقرآن أعظم الخيرات؛ لأنه النظام الكامل، والفضل الشامل، والهداية العظمى، والآية الكبرى، جمع به شمل المؤمنين فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم ويخرج أضغانهم وأحقادهم؟⁷.

¹ الطبري، جامع البيان، 327/3

² البغوي، معالم التنزيل، 133/1

³ البقرة: 105

⁴ انظر: الطبري، جامع البيان، 480/2

⁵ انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 373/1

⁶ البقرة: 87

⁷ انظر: رضا، تفسير المنار، 340/1

فموقف الكافرين الواضح تجاه المؤمنين أنهم يكرهون أن يحصل المؤمنون على أي خير مادي أو معنوي؛ لأن حياتهم قائمة على الحسد والأنانية، فهم يتعصبون لعقائدهم الفاسدة الموروثة، ويكرهون الحق، ويبغضون من يخالفهم في عقيدتهم ومنهاج حياتهم¹، ويتفقون على هدف واحد وهو العمل على منع الخير عن المسلمين، مع اختلافهم في وسائل تحقيق ذلك².

ثالثاً: معاندتهم للرسول صلى الله عليه وسلم

لقد "كان مجيء الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم انتقالاً بالقيادة الروحية في العالم، من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل، إلى ذرية اسماعيل. وقد كان غضب اليهود مشتعلًا لهذا التحول، مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره"³، حيث ناصبوه العداء، وحاربوه بكل الوسائل، مع علمهم بصدق النبي -صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغُضَبٍ عَلَى غُضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾⁴.

وبين الله -سبحانه وتعالى- في هذه الآيات، أن اليهود كانوا ينتظرون هذا النبي، وكانوا يتوعدون العرب بخروجه، لظنهم أنه يهودي، فلما جاءهم النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ومعه القرآن الكريم، وهم يعلمون صدقه، كفروا به من باب الحسد⁵.

ومما يدل على ذلك ما رواه البيهقي في دلائل النبوة، عن موقف اليهود من النبي الذي سيرسله الله، حيث كان اليهود في يثرب، "وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك وأصحاب أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالت اليهود: إن نبيا مبعوث الآن قد أظلم

¹ انظر: حبنكة، صراع مع الملاحدة حتى العظم، دار القلم، دمشق ص383.

² انظر: الشربيني، عماد السيد محمد إسماعيل، كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، دار الكتب المصرية، مصر،

(ط1/2002) ص117

³ الغزالي، محمد، الإسراء والمعراج، دار نهضة مصر، مصر، ط1، ص12

⁴ البقرة: 90

⁵ انظر: السعدي، تفسير السعدي، ص58

زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله-عز وجل- قال بعضهم لبعض: يا قوم، اعلّموا والله أن هذا النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه لما دعاهم إلى الله-عز وجل- وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجل أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم فنَدعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك¹.

لقد نددت آيات القرآن الكريم باليهود؛ بسبب كفرهم بالنبي-صلى الله عليه وسلم- وهم يعرفون أنه الحق، فقد كانوا يتفاخرون بأن النبي سيخرج من نسلهم، لكنهم كفروا به بعد خروجه حسداً، وخوفاً من تهديد مصالحهم².

ونتيجة لموقفهم من الإسلام، وحسدهم لرسول الله-صلى الله عليه وسلم، وحقدهم الدفين- خسر اليهود أنفسهم في الدنيا والآخرة؛ لعدم اتباعهم الحق، فلم يحصدوا في هذه الدنيا سوى الكفر، وغضب الله عليهم، ولهم العذاب الأليم في الآخرة³، حيث "اصطدمت أطماعهم الشريرة الباغية، بمشيئة الله وقضائه المحكم، ونزل النور والرحمة على غيرهم، شرقوا بغيظهم، وأحرق الحسد قلوبهم، وعزموا بغرورهم أن يقاوموا إرادة الله القوي العزيز، وانضموا إلى جند الشيطان، وبذلوا أقصى ما يستطيعون"⁴.

لم يكتفِ اليهود بعدم الإيمان، بل تورطوا بجريمة أكبر، حيث حرّضوا أهل مكة، فأخبروهم أن وثنيّتهم أفضل من الإسلام، وكانوا دائماً يبعثون مع كفار قريش أسئلة للنبي-صلى الله عليه وسلم- لظنهم أنهم سيخرجونه أو سيعجز عن الإجابة عليها⁵.

¹ البيهقي، (ت 458 هـ) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق: د. عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث، (ط1/ 1988 -) 433/2-434

² انظر: دروزة، التفسير الحديث، 468/2

³ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 90/1

⁴ الجربوع، عبد الله بن عبد الرحمن، أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (ط1/ 2003) 90/1

⁵ عبد اللطيف، عبد الشافي محمد، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، (ط1/ 1428) ص71

المطلب الثالث: بخل المنافقين، ونقمتهم على الإسلام ولمزهم للمتصدقين من المؤمنين

لقد كان المنافقون يعيشون في المدينة المنورة قبل هجرة الرسول-صلى الله عليه وسلم- حياة الفقر والضيق، وحين هاجر النبي-صلى الله عليه وسلم- انقلب فقرهم إلى غنى، لكن موقفهم كان النعمة بدل الشكر¹، قال تعالى: ﴿وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يُبْذَبُوا بِكُفْرٍ لَكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَئِذٍ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾² وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يُبْذَبُوا بِكُفْرٍ لَكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَئِذٍ عَذَابٌ أَلِيمٌ³.

تحدث الآيات عن حال المنافقين الذين كانوا قبل الإسلام كفاراً، وفقراء معوزين، فأخرجهم الله من الظلمات إلى النور، وبدل بفقرهم الغنى، فكان من حق الله عليهم أن يؤمنوا به ويعظموه³.

لم يحسن المنافقون التعامل مع الفضل الإلهي عليهم، فحاربوا الله ورسوله-صلى الله عليه وسلم- على الرغم من الإحسان إليهم، وعدم حصول ما "يقتضي الكراهة والكفر والهم بالانتقام، إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله تعالى بالغنائم التي هي عندهم غاية الغايات في هذه الحياة، وكانوا كسائر الأنصار من الفقراء⁴.

لقد أعطاهم الله من فضله لكنهم لم يوفوا بما قالوا، ولم يصدقوا فيما وعدوا، وإنما بخلوا به وأمسكوه...وأعرضوا إعراضاً تاماً عن النفقة وعن الإسلام، بسبب تأصل طبع النفاق في نفوسهم⁵.

وليس ثمة سبب لاتخاذهم هذا الموقف الخبيث من الإسلام، ورسالة النبي-صلى الله عليه وسلم- إلا الحقد والغیظ من النبي-صلى الله عليه وسلم- واشتداد أمره، مع أنه قد عاد عليهم من ذلك بسطة العيش والغنى، ولقد كان منهم من ينذر بأن يتصدق في سبيل الله ويخلص له إذا

¹ انظر: الفتاوى، (ت: 1307هـ) أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط2 1992م 315/5

² التوبة: 74

³ انظر: السعدي، تفسير السعدي، ص344

⁴ رضا، تفسير المنار 479/10

⁵ الزحيلي، التفسير الوسيط، 889/1

أنعم عليه، فلما آتاه الله من فضله بخل وتولى، فَنَمَّ عن خبث نيته وسوء طويته ودمغ إلى الأبد دمغة النفاق¹.

وسبب اتّخاذهم هذا الموقف اللئيم المنحرف؛ هو المرض النفسي، وسوء طبّاعهم، فهم يقبلون الحقائق، ويبدّلون النور إلى ظلام، والحق إلى باطل، والنعمة إلى نقمة². ولم يقف الأمر عند بخلهم بعد أن آتاهم الله من فضله، بل لمزوا الأغنياء والفقراء من المؤمنين الذين يقدّمون الصدقات، وسخروا منهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾³.

ورد في الحديث "عن أبي مسعود قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية"⁴.

لقد تعدّت وقاحة المنافقين وإجرامهم، ورسوخهم بالكفر، حد البخل الذي كانوا عليه، إلى لمز المؤمنين بما بذله أغنياؤهم وفقراؤهم⁵، فهم يتهمون من ينفق ماله بالرياء، وكذلك يتهمون على الفقراء الذين يبذلون القليل، فلا يسلم من ألسنهم أحد، وهم لا يقدّمون أي شيء؛ فنفسهم شحيحة، وإذا أنفقوا يكون إنفاقهم من باب الرياء⁶.

تبين بعض الآيات اعتراض المنافقين على تقسيم النبي صلى الله عليه وسلم للصدقات، وقد بيّن الله سبحانه أنه هو الذي قسم هذه الصدقات⁷، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَمُرْسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾⁸.

¹ جرجور، خالد بن إبراهيم، إحقاق الحق في النفاق، مؤسسة الريان للطباعة والتوزيع، ص22

² انظر: الخطيب، عبد الكريم، يونس، التفسير القرآني للقرآن، 847/5

³ التوبة: 79

⁴ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الوحي، باب قوله {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين}، حديث رقم 153، 84/6

⁵ انظر: رضا، تفسير المنار 485/10

⁶ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 1618/3

⁷ انظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 164/ 4

⁸ التوبة: 59

ومن أسباب انتقاداتهم لتقسيم الصدقات كذلك أن المنافقين كانوا "يرتقبون الفرص للصد عن الإسلام بالطعن على النبي-صلى الله عليه وسلم- بالشبه التي يظنون أنها توقع الريب في قلوب ضعفاء الإيمان من الجانب الذي يوافق أهواءهم، وقد كان منها قسمة الصدقات والغنائم"¹. ومن اتهاماتهم القبيحة الباطلة التي وجهوها للنبي-صلى الله عليه وسلم- أنه يؤثر أقاربه، ومن يحبهم، ولا يعدل بين الناس في تقسيمها².

ولم تكن انتقاداتهم إلا لأجل حصولهم على جزء من هذه الصدقات³، "ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله والرسول من الغنائم وطابت به أنفسهم، وقالوا القول الحسن ... لكان خيراً لهم وأولى وأكرم"⁴.

لم يظهر هؤلاء المنافقون أي نوع من الأدب فإن نفوسهم تفتقده، وإيمانهم ضعيف، فالأدب والإيمان يقتضيان الرضا والتسليم بما قسمه الله ورسوله، وينبغي أن يكون المؤمن راجياً رحمة الله وفضله، ولا يكون شديداً حرص على المكاسب المادية، وهذا ما تفتقده نفوس المنافقين الذين لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم القاسية⁵.

¹ رضا، تفسير المنار 420/10

² انظر: الرازي، مفاتيح الغيب 75/16

³ انظر: السعدي، تفسير السعدي ص340

⁴ الزحيلي، التفسير الوسيط، 874/1

⁵ انظر: قطب، في ظلال القرآن، 1668/3

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على المصطفى، وبعد:
فقد انتهيت هذه الدراسة، والله الفضل من قبل ومن بعد، وهذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها:

نتائج الدراسة:

أولاً: يرد الفضل في اللغة العربية على معان عديدة، تتدرج جميعها في أصل واحد، وهو الزيادة التي هي ضد النقص.

ثانياً: يرتبط معنى الفضل في الاصطلاح ارتباطاً وثيقاً بمعناه اللغوي، الذي يدور حول دلالات الزيادة التي ضدها النقصان؛ ومن ذلك الزيادة في الإحسان.

ثالثاً: وردت مادة الفضل في (إحدى وثلاثين) سورة من سور القرآن الكريم، انقسمت بين (ست عشرة) سورة مكية و(خمس عشرة) سورة مدنية.

رابعاً: الفضل كله بيده سبحانه، وكل ما يصيب الكون من خير وفضل فكله من عطائه وإحسانه الذي لا ينقطع، ومن ورحمته التي لا تنتهي.

خامساً: جاء الفضل في القرآن الكريم على ثمانية معانٍ وهي: الإنعام بالإسلام، والإنعام بالنبوة، والرزق في الدنيا، والرزق في الجنة، والجنة، والمنة والنعمة، والحلف، والتجاوز.

سادساً: ثمة ألفاظ في القرآن الكريم، تتصل في بعض جوانب معانيها، مع معنى الفضل، من دون أن يصل ذلك إلى حدّ الترادف، كالإحسان، والإنعام، والبر، والاعطاء، والامتتان، والزيادة والخير.

سابعاً: يتفاوت الرسل بالفضل، رغم علوّ مقامهم وما هم عليه من شرف المنزلة، إلا أنهم درجات متفاوتون عند الله سبحانه وتعالى.

ثامناً: فضل الله سبحانه وتعالى أولي العزم من الرسل على غيرهم، واصطفى محمداً - صلى الله عليه وسلم - من بين أولي العزم.

تاسعاً: تفضل الله تعالى على المؤمنين في الدنيا والآخرة بميزات ليست عند باقي البشر؛ وذلك زيادة على ما يستحقونه؛ لاتباعهم منهج الدين القويم.

عاشراً: لقد عمّ الفضل الإلهي الناس جميعاً، مؤمنين، وعاصين، وكافرين، وقد وصف الله تعالى ذاته بأنه ذو الفضل العظيم، في مقابل وصفه أكثر الناس بأنهم لا يشكرون، لذلك يجب على الإنسان أن يقابل فضل الله تعالى بالشكر.

حادي عشر: خصّ الله سبحانه وتعالى - بني إسرائيل، بفضله العظيم، في فترة زمنية معينة، وانتهى اختصاصهم بالفضل حين كفروا بهذا الفضل وتكبروا له، ولم يشكروا الله سبحانه، وتمادوا في ظلمهم، وبغيهم، وفسادهم، فنالوا جزاءهم بأن ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وغضب الله عليهم، ولعنهم.

ثاني عشر: هناك سبل لتحصيل الفضل الإلهي منها: الإيمان بالله والاعتصام به، والاستغفار والتوبة، والعمل الصالح، وطاعة الله سبحانه وتعالى -، وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة والزكاة.

ثالث عشر: يفرح المؤمنون بفضل الله عليهم، ويشكرون الله تعالى على ما آتاهم من فضله، ويعدّ هذا الفرح من الفرح المحمود.

رابع عشر: موقف اليهود من فضل الله هو حسدهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - على ما خصه الله به من فضل النبوة، وحسدهم للمؤمنين على ما خصهم الله به من فضل الإيمان والهداية.

خامس عشر: بخل المنافقون، بعد أن فضل الله عليهم بالمال، ونقمتهم على الإسلام ولمزهم المتصدقين من المؤمنين.

توصيات الدراسة:

أولاً: توجيه الباحثين إلى دراسة القرآن الكريم، دراسة موضوعية معمّقة.

ثانياً: التوضيح للناس بأن كل ما ينالونه من خير - في الدنيا والآخرة - هو زيادة منه سبحانه من غير استحقاق لهم عليه.

ثالثاً: ضرورة توجيه الناس لمقابلة فضل الله عليهم بالشكر والطّاعة.

رابعاً: إرشاد المجتمع المسلم إلى السبل التي من خلالها يتحقق فضل الله تعالى.

خامساً: توعية الناس بأن موقف اليهود وقوى البغي وحقدهم على الإسلام وأهله قائم منذ فجر الإسلام، وهو ليس مجرد نزاع على أرض وحسب.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الأشقر، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الرسل والرسالات، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، و دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، (ط4/1989)
3. ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، آثار ابن باديس، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية (ط1/1968)
4. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الجامع الصحيح، دار الشعب، القاهرة، (ط1/1987)
5. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع (ط4/1997)
6. البغوي----- شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، دمشق بيروت، (ط2/1983م)
7. البيرة، سليمان صادق، الاستغفار وثمراته في القرآن، مكة المكرمة
8. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت
9. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض (ط1/2003)
10. البيهقي----- دلائل النبوة، تحقيق: د. عبد المعطى قلعجي، دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث
11. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر (ط2/1975)

12. التميمي، محمد بن خليفة بن علي، حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة، أضواء السلف، الرياض، السعودية (ط1/1997)
13. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، 1985م،
14. ----- الفتاوى الكبرى، تحقيق : أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، (ط3/2005)
15. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط1/1418)
16. جاويش، محمد اسماعيل، من عجائب الخلق في عالم البحار، الدار الذهبية للنشر، القاهرة، 2012، ص7
17. جرار، بسام، سياحة الفكر، فلسطين، مركز نون للدراسات، (ط1/2013)
18. جربوع، عبد الله بن عبد الرحمن، أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، (ط1/2003)
19. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط1/1407)
20. جرجور، خالد بن ابراهيم، إحقاق الحق في النفاق، مؤسسة الريان للطباعة والتوزيع
21. الجليل، عبدالعزيز ناصر، أفلا يتفكرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، (ط1/2005)
22. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مكتبة الرسالة، لبنان (ط1/1984)
23. ----- زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت (ط:1/1422 هـ)

24. حبنكة، عبد الرحمن بن حسن الميداني ، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، (ط1 1998/)
25. ----- صراع مع الملاحدة حتى العظم، دار القلم، دمشق
26. ----- مكاييد يهودية عبر التاريخ، دار القلم، دمشق، (ط2/1978)
27. الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله ابن حجة الأزراري خزانة الأدب وغاية الأرب تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، (ط: 2004)
28. حقي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، روح البيان، دار الفكر، بيروت
29. ابن حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت 1420
30. الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق : تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية — بيروت، 1415
31. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، الشخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم تاريخ وسمات ومصير، دار القلم، دمشق، (ط1/1998)
32. ----- القرآن ونقض مطاعن الرهبان، دار القلم، دمشق، (ط1/2007)
33. الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة
34. ابن خمير، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي، تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان(ط1/1990)
35. دراز، محمد بن عبد الله، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار القلم للنشر والتوزيع، سوريا، ط2005

36. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، (ط1/1987)
37. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (1415 - 1995)
38. الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، **مفتاح الغيب**، دار الكتب العلمية، بيروت (ط1/2000)
39. الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداوي، دار العلم الدار الشامية، دمشق، بيروت
40. رشيد رضا، محمد بن علي، **الخلافة**، الزهراء للإعلام العربي، مصر
41. ----- **تفسير القرآن الحكيم**، دار الكتب المصرية، مصر، 1990
42. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية
43. الزحيلي، وهبه بن مصطفى الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، دمشق، (ط2/1418)
44. ----- **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر، سوريا، ط4
45. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407
46. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، **زهرة التفاسير**، دار الفكر العربي
47. زيدان، عبد الكريم، **السنن الإلهية**، مؤسسة الرسالة، لبنان
48. السامرائي، فاضل على طريق **التفسير البياني**، عمان، دار الفكر ناشرون وموزعون، (ط2/2013)
49. السدلان صالح بن غانم بن عبدالله بن سليمان بن علي، **التوبة إلى الله - معناها، حقيقتها، فضلها، شروطها**، دار بلنسية للنشر والتوزيع، (ط4/1416 هـ -)

50. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة، المبسوط، : دار المعرفة، بيروت، 1993م، 253/30
51. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة (ط1/2000)
52. السفاريني (1188هـ-)، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق (ط2/1982)
53. السلمي، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، دار المعارف بيروت ، لبنان
54. الشربيني، (ت 977هـ-) محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت
55. الشربيني، عماد السيد محمد إسماعيل، كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، دار الكتب المصرية، مصر، (ط1/2002)
56. الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، خواطر الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997
57. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، (ط:1995)
58. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت (ط1/1414هـ-)
59. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1/1997)
60. الصلابي، محمد علي، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم (أنواعه - شروطه وأسبابه - مراحل وأهدافه) مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، ومكتبة التابعين، مصر (ط1/2001)

61. ----- الأُمويَّة عَواملُ الازدهارِ وتَداعياتِ الانهيارِ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، (ط2/2008)
62. ----- السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، (ط1/2007)
63. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقق: مكتب التحقيق بدار هجر دار هجر. ط1
64. الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري شرح مشكل الآثار، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة
65. طنطاوي، محمد سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، مصر (ط2/2000)
66. ----- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1/1998)
67. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، (ط1/2000)
68. عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مصر، دار الكتب المصرية، 1364
69. عبد العليم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، 1978
70. عبد اللطيف ،عبد الشافي محمد، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، (ط1/1428)
71. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379
72. ابن عثيمين محمد بن صالح بن محمد، شرح العقيدة السفارينية - الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، دار الوطن للنشر، الرياض، (ط1/ 1426هـ)

73. ----- تفسير الفاتحة والبقرة، دار ابن الجوزي، السعودية (ط1: 1423)
74. ابن أبي العز الحنفي، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرع الصالحى الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق : جماعة من العلماء، تخريج : ناصر الدين الألباني، (ط1/2005)
75. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم للملايين، مصر
76. عياض، القاضي أبو الفضل بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ شفاء، للشمني، أحمد بن محمد بن محمد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1988
77. الغزالي ، محمد، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، دار نهضة مصر، مصر، ط1
78. ----- الجانب العاطفي من الإسلام، دار نهضة مصر، مصر، ط1،
79. ----- حصاد الغرور، دار نهضة مصر، مصر، ط1
80. ----- الإسراء والمعراج، دار نهضة مصر، مصر، ط1
81. ----- الخديعة حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، دار نهضة مصر، مصر، ط1
82. ----- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، دار نهضة مصر، مصر، ط1
83. ----- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار نهضة مصر، مصر، ط1
84. غلام ثعلب، أبو عمر محمد بن عبد الواحد البгдаي، ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، تحقيق: محمد بن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة
85. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، (2002)

86. الفاكهي، عبد الله بن أحمد، شرح كتاب الحدود في النحو، تحقيق: المتولي رمضان الدميري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1988
87. الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة، (ط3/2002)
88. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (ط1/1418)
89. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري، تأويل مختلف الحديث، دار الجيل، بيروت، 1972
90. ابن قدامة المقدسي، (ت620هـ) أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، لمعة الاعتقاد، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، السعودية، (ط2/2000)
91. قدح، محمود بن عبد الرحمن، موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ط29، 1419)
92. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة (ط2/1964)
93. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، ط3
94. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة
95. قطب، محمد قطب الشاذلي، مذاهب فكرية معاصرة، مصر، دار الشروق، (ط1/1983)
96. قنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط1992م
97. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط 1416/3 هـ)

98. ----- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، 1978
99. ----- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط2/1973)
100. ----- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، (ط2/1975)
101. ----- طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، (ط2/1414هـ)
102. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، (ط2/1999)
103. ----- البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، (ط1/1988م) شرح مشكل الآثار، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، (ط1/1494م)
104. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1/2005)
105. الماوردي، أبا الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، أعلام النبوة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (ط1/1409 هـ)
106. ----- النكت والعيون (تفسير الماوردي)، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت
107. مجاهد، أبو الحجاج بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تفسير مجاهد، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، (ط1/1989)
108. المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر
109. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار الجيل بيروت و دار الأفاق الجديدة ، بيروت حديث رقم 1195

110. مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت (ط1/2003)
111. المناوي، محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر المعاصر، (ط1/1410)
112. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (ط1/1990م)
113. نجاتي، محمد عثمان، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، مصر، (ط7/2001)
114. النخجواني، نعمة الله بن محمود نعمة الله النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، دار ركابي للنشر، مصر، 1999
115. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، سنن النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط1/2001)
116. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط2/1392)
117. هراس، محمد خليل، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد (ط1/187)
118. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (ط2/1955)

An - Najah National University
Faculty of Graduate Studies

Benevolence in the Holy Qur'an (Objective study)

By
Awni Adnan Kmail

Supervisor
Dr. Mohsen Samih Khalidi

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master of fundamentals of Islamic Law (Usol Al-Din)
Faculty of Graduate Studies, An – Najah National University, Nablus,
Palestine .**

2017

Benevolence in the Holy Qur'an (Objective study)

By

Awni adnan kmail

Supervisor

Dr. Mohsen Samih Khalidi

Abstract

This study aims to construct a milestone on the way towards an objective approach to the interpretation of the Holy Qur'an. Titled Benevolence in the Holy Qur'an: an Objective Study, the study brings together and classifies Qur'an verses on benevolence in an orderly manner while extracting subtle expressions, teachings and religious rules out of these verses. To this end, the researcher has followed an analytical and descriptive approach dividing the study into four main chapters:

The first chapter shares insight on the concept of benevolence both in terms of language and convention, as well as on the Qur'anic contexts in which benevolence was mentioned. The chapter also tracks all the versions and variants relating to the benevolence concept, in addition to the terms associated with this concept of benevolence.

The second chapter discusses the idea of differentiation between the prophets and messengers of Allah and between the prophets themselves. The chapter also provides evidence of the differences among the messengers and prophets and the characteristics of these differences in life and afterlife.

The third chapter examines the benevolence of Allah to the believers in life and afterlife, and the benevolence of Allah to the entire world and to the sons of Israel (the Israelites). The chapter differentiates between Allah's

benevolence to the nation of prophet Mohammad – peace be upon him – and his Almighty's preference of the sons of Israel over the other nations.

The fourth chapter explores ways through which man can seek the benevolence of his Almighty Allah. These ways include constant and firm belief in Allah, obedience to Allah, good work, performing of prayers and Zakat, and spending money for the sake of Allah. The chapter also draws comparisons between the positions of Muslims, Jews and hypocrites as far as the benevolence of Allah is concerned.

The study was concluded with a set of findings and recommendations.

The Scholar